

وزارة المعارف العمومية

الأخلاق

للسنة الثالثة من المدارس الثانوية

(وفق المنهج الأخير)

تأليف

أحمد أمين

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٤

رقيب مسعود سعيد
...
بالشرطة أرال

حاكم محمد قنديل
بمدرسة معلمات القبة بنرا
٣/١٠/١٩٢٧

الحضرة السا... ... ... الدا ... الطل
... ... الدا...
... محافظة السلطات العام. لكل فرد ... في رفع ...
السلطة المختصة.
... ... ، الرجال

... ...

وزارة المعارف العمومية

الأخلاق

للسنة الثالثة من المدارس الثانوية

(وفق المنهج الأخير)

تأليف

أحمد أمين

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٤



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

مقدّمة

الغرض من هذا الكتاب أن يكون مرشدا للطلبة فى حياتهم الأخلاقية ، يلفتهم إلى نفوسهم ، ويوسع نظرهم فيما يعرض عليهم من الأعمال اليومية ، ويشحذ إرادتهم لتأدية الواجب واكتساب الفضيلة .

راعيت فيه الجهة العملية أكثر مما راعيت الجهة النظرية ؛ لأن التعمق فى النظريات حظ الفلاسفة ، والعمل وفق ماتتطلبه الأخلاق واجب الناس جميعا ؛ والحياة الأخلاقية تعتمد على الروح الذى يبعث على العمل ، أكثر مما تعتمد على قواعد العلم .

وقد كنت ألفت كتابا فى الأخلاق مبسطا ، فلما وضعت الوزارة برنامجها الجديد للأخلاق فى المدارس الثانوية عمدت إلى

كتابى هـذا فصغته صياغة جديدة — بسطت موضوعاته حتى تناسب الطلبة فى دورهم هذا ، وحذفت منه مازاد عن حاجتهم ، وزدت فيه فصولا لم تكن من قبل .

ثم اختصرته فى هذه الطبعة وفق المنهج المخفف ، وأوضحت ما غمض من عبارته .

والله المسئول أن ينفع به كما نفع بأصله .

أحمد أمين

١٢ أغسطس سنة ١٩٣٢

فهرس الكتاب

الفصل الأول

ماهية علم الأخلاق وموضوعه

صفحة

الفصل الثانى

الحقوق

الفصل الثالث

الواجبات

صفحة

الفصل الرابع

الفضيلة

الفصل الاول

علم الأخلاق — ماهيتـــه — موضوعه — مسائله — الأعمال الإرادية وغير الإرادية ، التبعة الأخلاقية

ماهية علم الأخلاق ومسائله — كلنا يحكم على بعض الأعمال بأنها خير، وعلى بعضها بأنها شر، فنقول: العدل خير، والظلم شر. وأداء الدين إلى صاحبه خير، و إنكار المدين ماعليه شر. وهذا الحكم متداول بين الناس رفيعهم ووضيعهم عالمهم وجاهلهم ، على لسان الفيلسوف فى بحثه عن أعمال الإنسان ، وعلى ألسنة الصناع فى صناعتهم ، بل والأطفال فى ألعابهم .

فما معنى الخير والشر ؟ و بأى مقياس أقيس العمل فأحكم عليه بأنه خير أو شر ؟

كذلك نرى الناس يعملون أعمالا لغاية يطلبون تحقيقها ، والناس يختلفون اختلافا كبيرا فى هذه الغايات التى يَنْشُدُونَهَا ؛

فبعضهم يطلب المـال ، وآخر يطلب الجاه ، وآخر يطلب العلم ، وفريق يزهد فى كل ذلك ، ويطلب رضا الله بالعمل الصالح ، ويأمل النعيم المقيم فى الدار الآخرة ، ولكن كثيرمن هذه الغايات التى يطلبونها ليست هى الغاية الأخيرة ؛ فلو سألت إنسانا لِمَ تعمل هذا العمل ؟ لقال : إنه يعمله طلبا للمـال ، ولو سألته لم يطلب المـال ؟ لقال إنه يطلبه ليبنى قصرا أو يكوّن أسرة ، ولو سايرته فى آماله وسألته لم يريد القصر والأسرة ؟ لقال : إنه يرغب أن يكون فى الحياة سعيدا — إذن المـال والقصر والأسرة ليست غاياتٍ أخيرة ، إنما الغاية الأخيرة له أن يكون سعيدا — فهل للناس جميعا غاية أخيرة واحدة يطلبونهـا أو بعبارة أخرى ينبغى أن يطلبوها ؟ وما هى ؟

عن كل هذا يبحث علم الأخلاق .

فهو علم يوضح معنى الخير والشر ، ويبين ما ينبغى أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضـا ، ويشرح الغاية الأخيرة التى ينبغى أن يقصدها الناس فى أعمالهم ، وينير السبيل لعمل ما ينبغى.

موضوعه — يؤخذ ممـا ذكرنا أن علم الأخلاق يبحث عن أعمال الناس ؛ فيحكم عليها بالخير أو الشرّ ، ولكن ليست كل

الأعمال صالحة لأن يحكم عليها هذا الحكم ، فكثير من الأعمال لا يصح أن يقال : إنها خير ولا شر ، ولبيان ذلك نقول :

تصدر من الانسان أعمال غير ارادية كالتنفس ونبض القلب ورمش العين عند الانتقال بغأة من ظلمة الى نور ، فهذه الأعمال تسمى (أعمالا غير ارادية) وهى ليست من موضوع علم الأخلاق ، فلا نحكم عليها بخير ولا شر . ولا يقال : إن الانسان خيّر لأن قلبه ينبض نبضا حسنا أو معدته تهضم هضما جيدا ، كما لا يقال : إنه شرير لأن قلبه لا ينبض كما ينبغى ، ومعدته لا تهضم هضما حسنا ، لأنه لا دخل لارادة الانسان فى ذلك ، وكل انسان يريد أن ينبض قلبه وتهضم معدته على أحسن وجه ولكن ارادته لا أثر لها فى ذلك .

وتصدر من الانسان أعمال بعد التفكير فى نتائجها وارادة عملها ، كمن يرى أن بناء مستشفى فى بلدة ينفع قومه ويخفف مصائبهم فيتبرع بالمال لبنائه وادارته ، وكمن يُقْدِم على قتل عدوه فيفكر فى وسائل ذلك ثم ينفذ ما عزم عليه ، فهذه الأعمال تسمى "أعمالا ارادية" وهى موضوع علم الأخلاق ، فيحكم عليها بأنها خير أو شر ، وعلى فاعلها بأنه خير أو شرير .

وهناك نوع من الأعمال بين الاثنين ، فله شبه بالأعمال الارادية وله شبه بالأعمال غير الارادية ، فهل هو من موضوع علم الأخلاق ؟ كما فى الأمثلة الآتية :

(١) من الناس من يأتى أعمالا وهو نائم ، فلو أن أحدهم أشعل نارا بمنزله وهو فى هذه الحالة ، أو أطفأ نارا كادت تحرق المنزل ، فهل هذا عمل ارادى يحكم عليه بأنه خير فى الحالة الأولى وشر فى الثانية ؟

(٢) قد يصاب انسان بالنسيان فيترك عملا كان يجب عليه عمله فى وقته ، أو يخلف موعدا وعده .

(٣) قد يستغرق الفكرَ عمل ؛ كمن يشتغل بحل مسألة هندسية ، أو يقرأ فى رواية لذيذة ، فيلهيه ذلك عن درس واجب أو عمل مفروض .

هـذه الأعمال كلها — بالتأمل فيها — نرى أنها أعمال غير ارادية ، فليس النائم فى المثال الأول قد تعمد احراق المنزل وقدّر نتائجه ، لذلك لا يحكم على عمله هذا بأنه خير أو شر ؛ لأنه لا إرادة له ، ولا يسأل عنه ، وإنما يسأل عنه ويحاسب عليه

اذا كان يعلم أنه مصاب بهذا المرض ، وأنه يأتى أعمالا خطرة وهو نائم ، ثم لم يحتط وقت صحوه وانتباهه لما قد يحصل عند نومه ، بأن يحول بين نفسه والنار وأدواتها ، فهو مسئول خلقيا عن عدم الاحتياط وقت الانتباه ، لأنه شيء ارادى ؛ كان في مكنته أن يحتاط له ثم لم يفعل . وكذلك الشأن فى الأمثلة التى ذكرناها ونحوها . فلو أنك نمت وتركت النار مشتعلة فى موقد ثم طارت شرارة أحرقت المنزل لا يسمع لقولك : "إن هذه ليست خطيئتى ولست قادرا أن أمنع النار أن ترمى بالشرر وأنا نائم" اذ يقال لك : "إنك عالم أن ستنام ، وقد أردت النوم ؛ وعالم أن النار مشتعلة ، وكان فى امكانك أن تحتاط وقت انتباهك باطفائها ؛ وعالم أنك ستكون فى حالة عدم شعور ، فكان ينبغى أن تستعد وقت شعورك لما قد يطرأ وقت عدم شعورك ؛ وذلك باطفاء النار ، فنحن إنما نحكم عليك بالخطأ والصواب بالنظر الى عدم الاحتياط ، وهو شيء ارادى" .

ومثل ذلك الاتيان بعمل مع الاعتذار بجهل النتائج التى تصدر عنه — وكمن يعلم من نفسه أنه حاد الطبع غضوب ، لا يضبط نفسه عند سماع كلمة تؤلمه ، فيسب أو يضرب من غير شعور ، فلو أنه غشى الجمعيات التى هى مظنة لاثارة غضبه ،

وأتى بما يستنكر، كان مسئولا عن عمله — لما ذكرناه — وكذلك الأعمال التى اعتيدت حتى صار صاحبها يأتيها من غير ارادة ، فانه يسأل عنها ؛ لأن الاعتياد نتيجة عمل ارادى متكرر ، فلا يعذر طالب بأنه انما يدخن لأن التدخين أصبح عادة متمكنة منه ، لأنه — على فرض تمكنه كما يدعى — انما انغمس فى هذه العادة بعد أن دخن بجملة مرات وهو حر مختار مريد حتى صارت عادة ، وهكذا .

والخلاصة — أن موضوع علم الأخلاق هى الأعمال التى صدرت من العامل عن عمد واختيار ، يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل ، وكذلك الأعمال التى صدرت لا عن ارادة، ولكن كان يمكن تجنب وقوعها عند ما كان مريدا مختارا ، فهذان النوعان يحكم عليهما بالخير أو الشر — وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور ، ولا يمكن تجنبه فى حالة الاختيار ، فليس من موضوع علم الأخلاق .

التبعة الأخلاقية — (المسئولية الأخلاقية) — مما تقدم نفهم أن التبعة لا تكون الا اذا وجدت الارادة ، فما لا دخل لارادة الانسان فيه لا يسأل عنه ، ولا يلام عليه ، ولا يمدح

أو يذم من أجله ، فلا يمدح الشخص لطوله . ولا يذم لقِصَره من الناحيــة الأخلاقية ، ولا يقال : إنه خيّر لأنه جميل الوجه ولا شرير لأنه قبيحه ؛ لأن هذه الأشياء وأشباهها لا عمل لإرادة الانسان فيها .

وليس يلام الانسان على ســوء صحته ، ولا يمدح على حسنها الا بمقدار ماله من أعمال ارادية فى ذلك ، كسيره فى حياته على نظام صحىّ أو إهماله ذلك .

كذلك لا يسأل الانسان عما لم يمنح من ملكات عقلية أو فنية ، فالناس لم يخلقوا جميعا وعندهم اســتعداد بقدر واحد للرياضة ، أو للفنون الجميلة ، فمن لم يخلق رياضيا لا يكون مســئولا عن ضعفه الرياضى ، إنمــا يكون مسئولا إذا كان عنده الاستعداد الكافى وكان ينقصه المران والجد ثم لم يمرن ولم يجدّ وهكذا .

والطفل الرضيع إذا بكى وأسهر أمه طول الليل لا يسأل عن عمله لأنه لا ارادة له . والصّيدلىّ اذا أخطأ فأعطى الممرضة دواء غير المكتوب فى تذكرة الطبيب فناولته الممرضــة للمريض وهى جاهلة به فمات منه كان المسئول هو الصّيدلىّ لا الممرّضة ، لأنها لا إرادة لها فى ذلك ، والصّيدلىّ هو المسئول لاهماله فى عمله .

فمتى وجدت الارادة وجدت المسئولية ، ومالم توجد الإرادة فلا مسئولية ، فالأعمال التى ليس فى طاقة الإنسان التحرز عنها والتى غُلِب فيها على نفسه لا يسأل عنها ، كأعمال المجنون والمغمى عليه ، وكذلك أعمال المكرَه ، فمن أمسك بيد آخر واضطرّه لارتكاب جريمة ولم يستطع المكْرَه بحال أن يقاومه لم يكن مسئولا ، انما المسئول من أكرهه على العمل .

وهنا كثيرا ما يعرض هذا السؤال وهو : هل إرادة الإنسان حرة حتى يكون مسئولا عن عمله ؟ هـذه المسألة من المسائل المشكلة التى طال فيها الجدل قديما وحديثا ، فيذهب بعض الباحثين إلى أن الانسان مُجْبَر ليس حر الإرادة : ذلك لأن ارادة الانسان تتأثر بشيئين : الوِراثة والْبِيئَـة ، فهو يرث من أبويه ميولا خيرة وميولا شريرة ، وكذلك تؤثر فيه البيئة التى حوله من بيت ومدرسة وأصدقاء وكتب ونحو ذلك ؛ فمن نشأ بين أبوين مجرمين ، وورث منهما الميل الى الإجرام وشب بين مجرمين وسمع أحاديثهم كان مضطرا الى الاجرام ، ولم يكن حر الارادة فيما يفعل ، وليس فى استطاعته الا أن يكون مجرما ، واذا أردت اصلاحه فأصلح البيئة التى يعيش فيها وانقله من بيئته السيئة الى بيئة خيرة ، ولكن فى هذا الرأى غلوا ، فان الارادة — وان كانت

تتأثر بالوراثة والبيئة الى درجة كبيرة — فانها لا تفقد حريتها ، وأوضح دليل على ذلك ما نشعر به فى أنفسنا من أننا أحرار فى الاختيار ، وأننا نستطيع أن نعمل الشئ وألا نعمله . فمن كذب شعر من نفسه بأنه كان يستطيع ألّا يكذب ، ومن أجل هذا يندم على كذبته ، ولو كان كذبه محتما عليه ما ندم ، ولولا أن إرادة الانسان حرة فى اختيار الخير والشر لما كان هناك معنى للتعاليم الأخلاقية ، ولكان الأمر بفعل الخير والنهى عن الشر ضربا من العبث ، ولما كان هناك معنى للثواب والعقاب والمدح والذم .

وهناك نوعان من المسئولية : مسئولية قانونية ، ومسئولية أخلاقية ، فالانسان إذا خالف قانون البلاد كان مسئولا أمام القضاء،وعوقب من أجل مخالفته،و إذا خالف أوامر الأخلاق كان مسئولا أمام الله وأمام ضميره ، والمسئولية الأخلاقية . أوسع دائرة من المسئولية القانونية : ذلك لأن القانون لا يأمر ولا ينهى إلا إذا استطاع أن يعاقب من يخالف أمره ونهيه بالعقوبات التى نص عليها ، أما الأخلاق فسلطانها أوسع ؛ لأن من يتولى لها المثوبة والعقوبة هو الله والضمير، وكلاهما يشرف على الأعمال الظاهرة والباطنة — فالقانون لا يستطيع أن ينهى



عن الكذب والحسد ، لأنه لا يستطيع أن "يسأل" من يرتكبها ، ولو حاول أن يعاقب الكاذب أو الحاسد لارتكب من أضرار الناس بالوشاية والتجسس أكثر مما يُصلح ، أما الأخلاق فتنهى عن الكذب والحسد وتنهى عن أكثر من ذلك ؛ فتسأل الانسان عن نياته التى فى أعماق نفسه ولو لم يصدر عنها عمل ، وتكل مكافأته على نياته الحسنة ومعاقبته على نياته السيئة الى الله والى ضميره .

الفصل الثانى

الحقوق والواجبات

نرى الانسان يصيب عضوا من أعضائه مرض فيتألم له سائر الجسد ، ولا يقتصر الألم على العضو المريض ، وقد ينتهى ذلك بالموت فتُسلَب الأعضاء كلها ما فيها من حياة ، فأعضاء الجسم كلها متضامنة ، يتأثر سائرها بما يصيب أحدها ، وقد حكوا أن معدة الانسان قالت مرة : إنى أهضم الغذاء كله ، وأتعب فى ذلك ولا يصيبنى منه إلا القليل ، وقال القلب : إنى أوزع الدم على سائر الجسد ، ولا ينالنى منه الا قطرات ، وقالت الرجْل : إنى أسعى فى الأرض شرقا وغربا لكسب القوت مع أن حظى من ذلك العناء قليل ، وهكذا ، فأضربت الأعضاء عن العمل ، فبعد مدة أحست المعدة ألم الجوع ، وأحس القلب الضعف ، وأدرك كل عضو أن خيره فى أن يعمل له ولغيره ، فعادت جميعها الى العمل .

على العكس من ذلك نرى المجموعة من الحجارة لا رابطة بين أفرادها ، ولا يحس سائر الحجارة بما يقع على حجر منها ، فلو أنا أخذنا أحدها وحطمناه لم يتعدَّ ذلك الأثرُ غيرَه .

فما كان من الصنف الأول فهو (جسم عضوىّ) كالانسان والحيوان والنبات ، وما كان من الصنف الثانى — ككل مجموعة من أحجار وأخشاب ونحوها — يسمى (جسما غير عضوىّ) .

فمن أى الصنفين الجمعية من الناس ، كالأسرة والحزب والأمة ؟

إنا بقليل من النظر نرى أنها (جسم عضوىّ) — ولنأخذ مجتمعا صغيرا نحلله تحليلا دقيقا لنبين منه كيف يعتمد المجموع على أجزائه والأجزاء على المجموع ، ونتدرج فى النظر من المجتمع الصغير إلى المجتمع الكبير .

فأصغر المجتمعات الأسرة ، وهى تتكون عادة من أب وأم وأولاد وأقرب الناس اليهم ، وفيها يعتمد كل فرد على الباقين ، الكل يخدم الفرد ، والفرد يخدم الكل ، فاعتماد الأولاد على الآباء فى مأكلهم وملبسهم ومسكنهم ونظافتهم وغير ذلك واضح

جلى ؛ أما الآباء فقد يعتمدون على أولادهم اذا كبروا ومست الحاجة ، ولكن أهم من هذا وأكبر قيمة فى نظرهم ما يشعر به الآباء من السعادة بما يرون من حب أبنائهم لهم وحنانهم اليهم ، وإن كلمة شكر صادرة من قلب أو عملا يدل على الاعتراف بالجميل من الابن لأبيه أو أمه ليدخل على قلبهما من السرور ما لا يقدر .

وانظر الى علاقة الأولاد أنفسهم بعضهم مع بعض ترأن كل طفل فى الأسرة يؤثر فى الباقين ويتأثر بهم ، ولو عاش الانسان من مبدئه عيشة عزلة وانفراد لنشأ كالحيوان الأعجم ، فكل طفل يتعلم من إخوانه المشاركة فى العواطف فيشاركهم فى فرحهم ، ويشعر بالحزن لحزنهم ويتعلم درس الأخذ والعطاء ، فيعرف أنه يجب أن يعطىَ كما يأخذ ، وأن يتنازل عن بعض ما يحب ، ويتعلم تبادل المعونة مع الآخرين .

وفى الأسرة يتجلى ما قدمناه عن مميزات الجسم العضوى من أن الضرر الذى يصيب عضوا يتأثر به سائر الأعضاء ، فالولد سيء الخلق يحرم الأسرة كلها سعادتها ، والأب السكير أو المقامر يؤثر سلوكه فى معيشة أسرته ، فيضايقها بما يصرف من مال ، وما يتبع سكره أو لعبه من اهماله لشئون بيته ، والأم

الجاهلة يؤثر جهلها فى حال الأسرة ، فكم من ولد أصابته آفة ، أو شوهت خلقته عاهة أو أدركه الموت ، من جراء جهل أمه ، وهكذا .

كذلك الشأن فى الجمعيات التى هى أكبر من الأسرة كالمدرسة ، فطلبة المدرسة ومدرسوها وخريجوها جسم عضوى ، يستطيع كل فرد منهم بعمله الشخصى أن يرفع من شأن المدرسة ، أو يحط من قدرها ، والصورة التى فى أذهان الناس عن المدرسة وقيمتها عندهم نتيجة سيرة طلبتها وعمل أساتذتها .

والحزب من الأحزاب يأتى فرد من أفراده عملا مجيدا فيمجّد الحزب و يعلى مقامه ، وكذا العكس ، وقيمة الحزب أو المدرسة حاصل جمع ما يأتى به الأفراد من الأعمال .

والأمة أسرة كبيرة فهى جسم عضوى تتحد فى اللغة والدين غالبا ، يحكمها قانون واحد ، و يشترك أفرادها فى المنافع والمضار ، كالأمة المصرية ، يفيض نيلها فينتفع بذلك كل المصريين ، وتحسن زراعة القطن فيها سنة وترتفع أثمانه فيكون القطر كله فى رخاء ؛ تاجر يبيع للفلاح ما يحتاجه ، ومؤجرون يسهل عليهم تحصيل إجاراتهم ، وحكومة تحصل الخراج من غير عناء ، وتتيسر المعاملات بين الناس ، فالملاك بقبضهم أجور

أملاكهم يعمرون و يبنون ، فينتفع البناؤون والنجارون ومنهم ينتفع غيرهم وهكذا .

وأوضح المثل لاشتراك الأمة فى المنافع والمضار المثل الجغرافية ، فخزان أسوان مثلا بقعة من بقاع القطر المصرى يؤثر فى سعادة مصر جميعها ، فيصرف المياه بقدَر حسب الحاجة إليها ، ولو تهدم ولم يؤد عمله لتضرر القطر المصرى بجميعه لا أسوان وحدها .

والمدارس العليا فى القاهرة لم تنشأ لمنفعة القاهرة فحسب ، بل أنشئت لمصلحة مصر كلها ، يتعلم فيها أبناؤها من جميع سكانها .

بل تأمل فى كل طائفة من طوائف العمال ، كعمال السكك الحديدية وعجلات النقل ، تر أن أعمالهم مرتبطة ارتباطا وثيقا بأعمال غيرهم ، واعتبر ذلك فى أوقات اعتصابهم ، كيف يُعَطَّل كثير من الأعمال و يتأذى كثير من الناس .

وعلى مثال ماقدمنا يمكن القول بأن الأمة كلها يلحقها ضرر بليغ من وجود عدد كبير من أفرادها يشتغلون فى معامل غير صحية ، و يسكنون فى أزقة قذرة ، لا يصل إليها هواء نقى ، ولا تُطَهِّر مساكنها أشعة الشمس ، فتضعف صحتهم ، وتقصر

آجالهم ويكثر العجز فيهم ، فلا يستطيعون أداء أعمالهم حق أداء ، ويصبح كثير منهم عالة على الأمة ؛ يأكلون من عمل غيرهم ، فهم عضو مريض عاجز فى جسم حىّ ، وكذلك الشأن فى الأمة إذا كثر فيها عدد الجاهلين أو السكيرين ، ومحال أن يكون جسم الأمة صحيحا وفيها يكثر المقامرون أو المدمنون .

وكما أن كل عضو فى الجسم ينفع سائر الأعضاء وينتفع منها ، ويضر سائر الأعضاء ويتضرر منها ، كذلك الحال فى جسم الأمة ، فالمتعلمون مثلا ينتفعون من الأمة بمالها وسعيها لتنتفع الأمة منهم بعد بعلمهم وعملهم ، وهكذا كل طائفة من طوائف العمال ، فالمعلمون والنجارون والمزارعون والتجار وغيرهم أعضاء يكوّنون جسم الأمة ، وكل فرد عضو فى أمته ، يؤثر فيها أثرا صالحا أو سيئا ، فالمدرس الصالح يبث فى روح تلاميذه أخلاقا صالحة ، ويجعلهم أقرب إلى الخير ، وغيرهم يقتدى بهم ، والقاضى العادل يعدل بين الناس فيأمنون على حقوقهم ، ويثق ذو الحق بأنه سيصل إلى حقه ، ويخاف المجرم من عقوبة الإجرام فيبتعد عنه ، ويجدّ العامل فى عمله لأنه يعلم أن نتيجة سعيه له ، وأنه إن اغتُصب حقه فالقضاء كفيل بردّه إليه ، وعلى العكس من ذلك القاضى المرتشى .

ولا يخلو إنسان من أثر فى الأمة و إن لم تره عيوننا ، كالشعرة لها ظلّ و إن لم تدركه أبصارنا ، فاذا ضم إليها شعرات كان الظل جليا واضحا ، وهـذا الأثر يختلف تبعا لاختلاف درجات الناس فى الصلاح والفساد ، ومقيـاسُ رقىّ الأمـة وانحطاطها مجموع عمل أفرادها .

بل قـد تجلى للباحثين فى الأيام الأخيرة أن الناس كلهم على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ودينهم جسم عضوى واحد ، فكل أمـة تؤثر فى الأمم الأخرى وتتأثر بهـا فى صناعاتهـا وعلومها وأخلاقها ؛ فليست أمة من الأمم غنية بمعادنها وصناعاتها وعلومها عما حولها ، بل ترى أن الله قد قسم الخيرات على العالم ، فأمة غنية بالحبوب ولكنها فى حاجة إلى المعادن، وأخرى على العكس منها وهكذا ، وكل ينفع و ينتفع .

اعتبر ذلك فى أيام الحرب العظمى تر أن كل أمـة — محايدة كانت أو محاربة — قد أصابها الضنك بسبب حاجتها إلى أشياء كانت تجلبها من الأمم الأخرى ، فأصبح نَيْلها عسيرا .

وقد جرّت هذه الحقيقة — أعنى اعتبار الجنس البشرى جميعه جسما واحدا وكل أمة عضوا من أعضائه — بعض الباحثين إلى

النظر فى الحروب التى تقع بين الأمم ، وذهبوا إلى أنها ليست بسائغة ، كما لا يسوغ أن يعمل عضو فى جسم على إضعاف عضو آخر ، وتمنوا أن لو زال مثار الخلاف بين الأمم حتى لا يكون مساغ للحرب ، واقترحوا لذلك إنشاء محكمة تحكم بين الأمم ، كما تحكم المحاكم بين الأفراد المتنازعين ، وهذه هى المسماة "بعصبة الأمم" وقال هؤلاء : إن الخلاف الطبيعى بين الأمم فى الأخلاق والعادات لا يحيل إمكان التآلف بينها ، كما أن الاختلاف بين أفراد الأسرة بالذكورة والأنوثة والشدة واللين، لم يمنع من توحدها واعتبارها جسما واحدا .

وقد تقدم الناس فى فهم هذه "الأخوية العامة" فاشتدت الرابطة بين الأمم، وكثر انتفاع بعضها ببعض، فامتدت السكك الحديدية بين أمة وأخرى ، وعبرت البواخر البحار ، واخترقت الطيارات الأجواء ، فارتبطت الأمم برا وبحرا وجوا، وعقدت محالفات كثيرة بين الأمم المختلفة لمصلحة الناس ، كالاتفاق العام على البريد والتلغراف والسكك الحديدية ، ومن الأدلة على ذلك ما نراه من ميل كثير من الناس الى توحيد المقاييس والموازين فى العالم جميعه، وعقد مؤتمرات عامة تمثل فيها الأمم المختلفة للبحث فى شئون شتى علمية وصحية ، إلى كثير من أمثال ذلك .

هذا هو شأن المجتمعات والأفراد ، وكل فرد فيها عضو من أعضائها ، ولا يخلو إنسان من ارتباطه بمجتمعات كثيرة ، فكل إنسان عضو فى أسرة ، وفى مدينة ، أو قرية ، و فى أمة ، وفى العالم بأسره .

ومن المجتمع يستمد الفرد كل شيء من مأكل وملبس ومسكن وعلم وخلق، ولو جرّد الانسان من كل شيء ناله من المجتمع ما بقى له شيء ، بجسمه وعقله وخلقه منحة من منح المجتمع .

وكما أن العضو اذا انفصل من الجسم مات ولم تعد له حياة كاليد تفارق الجسم، والورقة تفارق الشجرة ، فكذلك الانسان إذا انفصل من مجتمعه أدركه الفناء ، ولم تكن له قيمة ، لأن أعمال الانسان وأغراضه وعاداته لا تُقَوَّم إلا بالنظر الى المجتمع ، فليس الصدق خيرا ولا الكذب شرا إلا لانسان يعيش فى مجتمع، ولولا ذلك لم يكن أحدها خيرا والآخر شرا .

وارتباط الانسان بمجتمعه هو أساس الحقوق والواجبات كما سيأتى بيانه .



معنى الحق والواجب

. ما للانسان يسمى "حقا" وما عليه يسمى "واجبا" فاذا كان لى مائة جنيه على آخر يقال : إن لى حقا أن آخذ منه مائة جنيه، وواجب عليه أن يدفع لى هذا المبلغ .

والحق والواجب متلازمان، فمتى كان لشخص حق كان هناك واجب ، بل الواقع أن كل حق يستلزم واجبين : واجبا على الناس أن يحترموا حق ذى الحق ولا يتعرّضوا له أثناء فعله ، وواجبا على ذى الحق نفسه ، وهو أن يستعمل حقه فى خيره وخير الناس، فمثلا إذا كان لى بيت فهو حق لى ، وذلك يستلزم واجبين : واجبا على الناس ألا يتعدّوا على هذا البيت بضرر ، وأن يحترموا حقى فى ملكيته،وواجبا علىّ وهو أن أستعمل البيت فى خيرى وخير الناس ،فاذا أشعلت فيه نارا أريد إحراقه أو آذيت الناس بإيجاره لعمل مقلق للراحة لم أكن أدّيت ما وجب علىّ ، وهكذا .

ولكن جهة التنفيذ فى الواجبين ليست واحدة : فالذى ينفذ الواجب الأوّل هو القانون الوضعى ، غالبا ، فاذا تعدّى أحد

على بيتى فغصبه منى كان القانون الوضعى هو الذى يحمينى ، فأستطيع أن أرفع الأمر الى المحاكم ، والقاضى يلزمه بمراعاة حقى وينفذ ما يجب عليه . أما الواجب الثانى ، وهو الواجب علىّ فى استعمال حقى على أحسن وجه ، فليس الذى ينفذه هو القانون الوضعى ، غالبا ، وانما يأمر به القانون الأخلاقى ، ويترك تنفيذه الى ذى الحق نفسه والى الرأى العام . فلو أنى هدمت بيتى وهو عامر ، أو أتلفت هندسته ، أو تركته مهجورا لا أُسْكِنُه ولا أَسْكُنُه لم يتدخل القانون الوضعى فى ذلك ، وانما يتدخل القانون الأخلاقى ، فيأمرنى أن أعمل الواجب علىّ من استعمال بيتى لخيرى وخير الناس ، ويلومنى اذا لم أتبع ذلك ، وكذلك يلومنى الرأى العام . فاذا قال القانون الوضعى : "لكل مالك أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء" فان الأخلاق تقول : "ليس للمالك أن يتصرف فى ملكه إلا بما فيه الخير له وللناس" .

أساس الحق والواجب — لم كان لى حقوق وعلىّ واجبات ؟ يقولون مثلا : إن لى حقا فى أن أتعلم ، وحقا فى أن أكون حرا و إن علىّ واجبا أن أرعى حقوق الناس ، وأن أؤدى ما علىّ من الواجبات ، فما الذى رتب هذه الحقوق وهذه الواجبات ؟

أساس الحقوق والواجبات هو المعيشة الاجتماعية ، فالاتصال الوثيق بين الفرد ومجتمعه الذى شرحناه هو أساس فكرة الحق والواجب ، فلو أن الفرد يعيش وحده ما كان هناك معنى لحق ولا واجب ، بل كان له أن يفعل ما يشاء بلا قيد ولا شرط ، ولكنهُ لما كان عضوا فى مجتمع ، وكان المجتمع ككل جسم حىّ لا بد من أعمال للمحافظة عليه ، واذا لم تعمل تعرّض المجتمع للخطر والفناء أو التدهور نشأت عن ذلك فكرة الحق والواجب ، فالأشياء الضرورية لبقاء المجتمع كالمحافظة على الأرواح والأموال سميناها حقوقا للأفراد فى المرتبة الأولى وأوجبنا على كل فرد أن يحترمها ، وأوقعنا العقوبات الشديدة على من ينتهك حرمتها صونا للمجتمع من الفناء ، والأشياء التى هى سبب فى رفاهية المجتمع وكماله ؛ كالتعليم جعلناها حقوقا فى المرتبة الثانية وأوجبناها وجوبا أقل من المسائل الأولى .

ولنذكر الآن بعض تلك الحقوق وما يجب بأزائها :

١ — حق الحيـاة

لكل إنسان الحق أن يحيا، ولكن لما كانت معيشة الانسان معيشة اجتماعية وكانت الحقوق التى له مستفادة من قِبَل المجتمع كان عدلا أن يضحى الفرد بحياته لحفظ حياة المجتمع اذا اقتضى الحال ذلك، كما إذا هوجمت الأمة من أمة أخرى قصد الاستيلاء عليها فتجنّد من أبنائها من يدافع عنها ، وهذه أحوال نادرة ، أما فيما عداها فحق الحياة حق مقدس لايسمح به لأى شىء آخر.

وهـذا الحق مع وضوحه قد جهلته بعض الأمم فى بداوتها ، فبعض قبائل العرب فى جاهليتها كانت تئد البنات خوفا من العار، وتئد الأولاد خشية الفقر ، وكثير من الأمم كانت تقتل أسرى الحرب متى ظفرت بهم — وفى بعض الأمم الآخذة بحظ وافر من المدنية لا يزال حق الحياة عندهم معرضا للخطر أحيانا ، كما هو الشأن عند الأمم التى تبيح المبارزة ؛ ولو أن الناس قدروا الحياة حق قدرها وتقدّموا فى فهم حقها لما تحاربوا ، وحق الحياة لا يمكن أن يوفّر لكل أمة ما لم تتوافر لهم وسائل المحافظة على الحياة ، وذلك بسهر الحكومة على المحافظة

على الأمن والقبض على المجرمين ونحو ذلك ، كما أنه لا يمكن أن يوفر حق الحياة الا بتوفير وسائل المعيشة ، حتى لا تقع الأمة فى مجاعة أو يكثر فيها العاطلون الذين لا يجدون ما يقيم أودهم ، ويحفظ حياتهم .

وحق الحياة ككل الحقوق يستلزم واجبين : واجبا على ذى الحق وهو أن يحفظ حياته ، ويقضيها فى أحسن الوجوه التى تنفع نفسه والناس ، فالمنتحر مضيع لحقه فى الحياة ، مخل بالواجب عليه ، واذ كان هذا الحق أقدس الحقوق كان مَنْ تعدّى عليه بقتل أو نحوه مستوجبا أشدّ العقوبات ، وربما كان من الحق أن نسلبه أيضا حقه فى الحياة .

٢ — حق الحرّية

كلمة الحرّية من الكلمات الغامضة التى تستعمل فى معان مختلفة ، ولذلك نبدأ بتحديدها :

الحرّية المطلقة هى "أن يريد الانسان ويعمل ما يريد من غير أن يكون لأى شىء آخر سلطان على إرادته أو عمله" وهذا المعنى لا يصلح للناس لأنه يؤدى الى الفوضى والاضطراب .

انما يصلح للناس حرية مقيدة ، وقد جاء تعريفها فى " إعلان حقوق الانسان " الصادر فى فرنسا سنة ١٧٨٩ م بأنها " القدرة على عمل كل شىء لا يضر بالغير " . وقريب منه ما قاله " هربرت سبنسر " كل انسان حر أن يفعل ما يريد ، بشرط ألا يتعدى على ما لغيره من مثل حريته ، ومعنى قوله : إن الناس كلهم متساوون فى حق الحرية ، ولكل انسان الحق أن يعمل ما يريد مالم ينقص ذلك من حرية الآخرين .

وعرفها بعض الأخلاقيين " بأن يكون للانسان الحق فى ترقية نفسه بما يشاء من غير أن يتدخل أحد فى شؤونه ؛ إلا إذا وجدت ضرورة تدعو إلى ذلك ، أو كان التدخل لترقية من يتدخل فى شؤونه ، كما فى الحجر على السفيه " .

وعلى الجملة ، إن هذا الحق يتطلب أن يعامل كل فرد معاملة إنسان لا معاملة متاع ، ومن أجل هذا حرم الرق والاستبداد والتسخير ونحوها مما يعامَلُ فيه الانسان كأنه متاع يستخدم لغاية آخر .

ولفهم الحرية فهما صحيحا يجب أن نذكر أنواعها ، ثم نبين كل نوع على حدته ، فأهم ما تُستعمل فيه الحرية ما يأتى :

(ا) الحرية التي هي ضد الاسترقاق ، فيقال حر ورقيق .

(ب) حرية الأمم ، ويعنون بها الاستقلال وعدم الخضوع لحكم الأجنبي .

(ج) الحرية المدنية ، وهي أن يكون الشخص آمنا من التعدّى عليه وعلى ملكه ظلما ، وهذه الحرية تشمل حرية الرأى وحرية الخطابة وحرية التصرف فى الملك الخ .

(د) الحرية السياسية ، وهي أن يكون للانسان الحق فى أن يأخذ نصيبا فى حكومة بلاده بالتصويت فى الانتخابات ونحو ذلك .

النوع الأول ، الحرية — لا يحتاج هذا النوع الى شرح طويل ، فالفرق بين الحرّ والرقيق واضح جلى ، وقد كان الاسترقاق فاشيا فى العصور الماضية ، ولم يكن ينظر اليه بعين المقت التى ينظر اليه بها اليوم ، حتى إن أرسطو — أكبر فلاسفة اليونان — كان يرى أن بعض الناس بفطرته غير قادر على أن يتصرف فى شؤون نفسه فخير له أن يكون رقيقا يدبر غيره أمره — وفى العصور الحديثة ساد القول بأن الحرية حق طبيعى لكل انسان ، وبعبارة أخرى حق منحه الله للانسان منذ ولد .

وانما منح الناس الحرية لسببين : (أولها) أن حب الحرية متأصل فى نفس كل انسان ، فمن الظلم أن نسلبه هذه الرغبة ، (ثانيهما) أن الانسان لا يستطيع أن يقرر شؤونه بنفسه إلا إذا كان حرا ، أى أنه لا يمكن أن يكون مسئولا إلا إذا كان حرا ، أعنى أنه لا يكون انسانا ، إلا اذا كان حرا .

قد ينعم بعض الناس فى ظل العبودية أكثر مما ينعمون فى ظل الحرية ، و بعض الأرقاء كانوا أسعد حالا من بعض العمال اليوم ، ولكن قلّ أن يرضى هؤلاء العمال بحريتهم بديلا ، قد تكون الحرية مدرسة شاقة متعبة ، ولكنها المدرسة الوحيدة التى يتعلم فيها الانسان أن يكون انسانا حقا .

النوع الثانى ، حرية الأمم أى استقلالها — والأمة تحب أن تتمتع بحريتها وتحكم نفسها ، كما يحب الفرد أن يكون سيد نفسه ، وتحس الضعة والمذلة إذا حكمها غيرها .

فان قلت : ما الفائدة التى تعود على الأمة من استقلالها ؟ قلنا إن فائدتها من ذلك كفائدة من يُفَكّ الحجر عنه ، فانا إذا منحنا المحجور عليه حرية التصرف فقد يخطئ ، ولكن هذا هو خير طريق ليعتنى بشؤونه وليكون مسئولا ، وأنه اذا كان حر

التصرف زاد طموحه لتكميل نفسه ، وشعر بأنه انسان حقا ، وكذلك الشأن فى الأمم ، إذا منحت استقلالها شعرت بمسئوليتها ، وطمحت ببصرها لتكون خيرا مما هى ، واعتقدت أن نتيجة مجهودها لها لا لغيرها ، فضاعف ذلك فى جدها .

ووجه آخر ، وهو أن الأمة إذا كانت محكومة بأخرى فكثيرا ما يحدث أن تتعارض مصالح الأمتين ، فيحدث الاحتكاك ويكثر التصادم ، وفى ذلك ما يعوق الأمة عن التقدم .

وعلى الجملة فلا تشعر الأمة بشخصيتها إلا اذا نالت حريتها ، ولا تنهض وتجدّ فى نيل كمالها إلا إذا كانت تدير شؤون نفسها بنفسها ، وهذا النوع من الحرية هو الخطوة الأولى فى كثير من الأحيان لتحقيق الأنواع الأخرى ، كالحرية المدنية والسياسية .

النوع الثالث ، الحرية المدنية — لا يتمتع الفرد بهذا النوع من الحرية إلا اذا كان فى أمة قد بلغت حظا من المدنية ، فالأمم المتبدية — حيث لا يأمن الفرد فيها على نفسه من القتل أو السرقة أو مصادرة أملاكه — لا تتمتع بالحرية المدنية ، فاذا تقدم الناس فى الحضارة أصبح لكل فرد فى الأمة الحق أن يدافع عن نفسه أمام القضاء ، وأمن أن يسجَن أو يُحبَس

أو يعاقب أية عقوبة إلا اذا حكم عليه بمقتضى قانون البـلاد ، ولا يصح أن يتعدّى عليه فى غير هذه الحالة ، ولا أن يكون ضحية لطمع كبير ، أو انتقام حاكم ، كما كان الشأن قبل رقىّ الانسان ، وهذا النوع من الحرية يشمل :

حرية الرأى — ونعنى بها أن يكون كل انسان حرا فى الحكم على الأشياء بما يعتقد أنه الحق ، فليس الاجتهاد والتفكير والحكم على الأشياء بأنها صواب أو خطأ من حق طائفة خاصة ، بل من حق كل فرد أن يقول أو يكتب ما يراه صوابا — فى أدب من القول ، بعد أن يتثبت منه ويقوم عنده البرهان على صحته — وان خالف العظماء والعلماء ، ذلك لأنه لا يعرف أحد من الناس كل الحق ، ونحن اذا منعنا الناس من أن يقولوا ما يعتقدون حرمنا ما قد يكون فى قولهم من رأى صائب أو فكرة حقة ، ولهذا يجب أن نسمح لكل فرد أن يكتب أو يقول ما يراه حقـا ثم تتطاحن الآراء صحيحها وفاسدها حتى يتغلب الحق ويتجلى للناس .

النوع الرابع ، الحرية السياسية — ونعنى بها أن يكون للانسان نصيب فى حكم بلاده ، فالأمة اذا كان ممثلوها هم المشرعين

لها والمديرين لشؤونها قيل: انها تعمل حسب إرادتها، وهذا هو معنى الحرية،أما إن كان يشرّع لها ويأمرها من لم يمثلها لم تكن تعمل حسب إرادتها بل هى مضطرة مجبرة،والجبر ينافى الحرية.

وقد ثبت هذا الحق "حق الحرية" للانسان لأنه لا يستطيع أن يكمل نفسه ويرقى أخلاقه ، ويصل إلى غايته إلا إذا كان حرا .

*
* *

وقد تأخر الناس فى فهم هــذا الحق حتى بعد أن فهموا حق الحياة ، فقد ظل الرق فاشيا بعد أن كف الناس عن قتلى أسرى الحرب ووأد البنات ، ولم يبطل الرق الا فى القرن الماضى ، والآن بعد أن ألغى الرق لم يتمتع العالم بأنواع الحرية الأخرى كما ينبغى ، فأمم عدة لا تزال تجاهد لنيل استقلالها، وكذلك النوعان الآخران من الحرية ، أعنى الحرية المدنية والسياسية ، فهما مع اختلاف الأمم فى درجة التمتع بهما لم يبلغا الدرجة القصوى المنشودة لها .

وهذا الحق أيضا يستلزم واجبين: واجبا على الناس والحكومات أن يحترموا حق الفرد فى الحرية ، فلا يتدخلوا فى شؤونه

إلا للمصلحة العامة وعند الضرورة ، فالحكومات لا تقوم بواجبها
إن كانت تحجر على الصحف والكتب أن تطبع حتى يجيزها
الرقيب، الا فى أحوال استثنائية كحالة الحرب، والأفراد لا يؤدون
واجبهم إذا كانوا لا يسمحون لخطيب أن يخطب إلا إذا كان يرى
رأيهم ، ويقول بلسانهم ، ولا يبيحون لكاتب أن يكتب
ولا صحيفة أن تنشر الا ما يوافق مذهبهم ، إنما يؤدون واجبهم
يوم يكون القول حرا ، والنقد المؤدب حرا ، والحجة وحدها هى
وسيلة الإقناع .

يجب أن يستشعر المرء أنه حر، وأن الناس أيضا أحرار ،
فكما أن له حقا أن يكون حرا عليه واجب أن يحترم حرية الآخرين،
يجب أن ينضم الى شعور الشخص بأنه حر وأنه سيد نفسه شعور
بأنه ليس يعيش وحده ، ولكنه عضو فى جمعية ، وأنه مسئول
عن حرية هـذه الجمعية ، ومن مميزات الأمم الراقية نماء هذين
الشعورين فى أفرادها وتعادلها ، أعنى الشعور بالحرية والشعور
بالمسئولية . والواجب الآخر واجب على ذى الحق نفسه ،
وهو أن يستعمل حريته فى خيره وخير الناس، ومن أساء استعمالها

كان خليقا أن يُسْلَبَهَا ، قال ملتن : " من يتعشق الحرية يجب أن يكون قبلُ طيبا حكيما " فليست الحرية تشرى أو تمنح ، ولكن تكسب بالعمل لنيلها وحسن الاستعداد لها .

٣ — المساواة

أخذت هذه الكلمة محلا كبيرا فى العقول من عهد الثورة الفرنسية فقد كان شعارها " الحرية ، المساواة ، الإخاء ، كل الناس أحرار ، كل الناس متساوون ، كل الناس اخوان " فى الدنيا وسائل كثيرة من وسائل الحياة الطيبة كالثروة التى لا بد منها للأكل الطيب والملبس الطيب والمسكن الصالح واقتناء الكتب النافعة ، والقدرة على الرياضة البدنية والعقلية ونحو ذلك .

وهذه الثروة لا تكفى لسد مطالب كل الناس ، فهل من الحق والعدل أن يتساوى الناس فى هذه الوسائل الموجودة أو الحق والعدل فى عدم المساواة ؟

هل من العدل أن توزع الثروة من أراض ومناجم ومتاع على الناس بالسواء فلا يكون غنى وفقير ولا أرباب أموال وعمال ؟

تغالى قوم فى ذلك، فطلبوا المساواة فى وسائل الحياة كالمال ونحوه ، وذكروا لذلك حججا لا يتسع هذا الكتاب لذكرها .

والحق أن المساواة التامة لا تمكن لأسباب ، أهمها :

(١) أن الناس مختلفون بطبيعتهم فى قواهم وملكاتهم ، فمنهم الذكى والغبى، والحاذق والأبله ، والكفء وغير الكفء . هكذا خلقهم الله ، وهكذا ولدوا ، فمن الخرق أن نمكن الأغبياء والبله وغير الأكفاء من إدارة الأعمال الواسعة ، وأن نمنحهم منحا كبيرة كما نمنح الأكفاء ، فانا إذا منحناهم ذلك أساءوا استعمالها ، ولم ينتفعوا بثمرتها ، مع أنا لو أعطيناهم ضروريات العيش فحسب وأعطينا مازاد للكفء القادر سعد الجميع .

(٢) أن الاختلاف بين الناس يبعثهم على الجد ، فالفقير إذا رأى الغنى يتمتع بأكثر مما يتمتع به هو جدّ فى العمل ليكون مثله ، وحامل الشهادة الثانوية إذا رأى حامل الشهادة العالية يمتاز بميزات أكثر منه رغب وعمل ليكون مثله ، وتمتُّع بعض الناس بالملبس الجميل والمسكن العظيم والسيارات الفخمة يثير فى النفس حب العمل لتصل إلى النتيجة المنشودة ، ويبعث على الاختراع ويرغب المتزاحمين فى استكشاف خير الطرق ، لنجاح عملهم ،

وفى ذلك خير للانسانية على العموم ، أما إن نحن سوينا بين الناس لم نجد ما يحملهم على الجد ، وقد فُطِرَ النـاس — متوحشهم ومتمدينهم — على أن الأمل يسيّرهم ، والرغبة فى عيش خير من عيشتهم هى التى تشجعهم .

ومع أن دعاة المساواة لم يصلوا إلى غرضهم فقد كان لهم أثر كبير فى تحسين حالة العمل ، وترقية طبقة الفقراء ، بزيادة أجورهم وتقليل ساعات عملهم ، وإنشاء المساكن الصحية لهم ، ونحو ذلك .

فالحق ان المساواة المطلقة فى كل شىء لا تمكن ، وليست من العدل ، خصوصا بعد ظهور أن الناس مختلفون بالطبيعة ، إنما هناك أشياء تعقل فيها المساواة ، وهى عدل وعدمها ظلم ، من ذلك :

(١) المساواة أمام القانون — بمعنى أنه لا فرق أمامه بين غنى وفقير وشريف وغير شريف ، كل يعاقَب على جريمته إذا أجرم ، وعند وضع القانون ينبغى ألا تفضل طبقة على طبقة .

(٢) المساواة فى الحقوق — فكل إنسان له من حق الحرية وحق الحياة ونحو ذلك ما للآخر ، ليس لأحد الحق فى أن يخطب

أو ينشر رأيه دون الآخر ، بل الكل فى ذلك سواء ، للأمير من الحق ما لأحد الرعية ، وللغنى ما للفقير .

(٣) المساواة فى المناصب — أعنى أنه ليست المناصب مقصورة على فئة خاصة ، بل كل من تتوافر فيه الصلاحية للمنصب له الحق فيه ، وليس للاعتبارات الأخرى كالغنى والجاه دخل فى التفضيل .

(٤) المساواة فى التصويت فى الانتخاب — فليس ذلك حق الأغنياء دون الفقراء ، وهذا النوع موضع خلاف بين العلماء ، ولم تتبع الأمم نمطا واحدا فى السير عليه .

الحقوق السياسية

يقسمون عادة الحقوق إلى نوعين : حقوق مدنية ، وحقوق سياسية ، ويعنون بالأولى الحقوق التى للانسان ، من حيث هو إنسان مدنى يعيش فى مجتمع ، وذلك كحق الحياة وحق الحرية وحق التربى ويعنون بالحقوق السياسية الحقوق التى للانسان ، من حيث هو فرد من أفراد مجتمع له نظام سياسى خاص ، وعلى هذا فكل الحقوق السياسية جزء من الحقوق المدنية .

(١) وأهم الحقوق السياسية : المساواة فى الحقوق العامة ، فكل الأفراد كما أشرنا قبلُ سواء أمام القانون ، إذا أباح شيئا أباحه للجميع ، وإذا حرم شيئا حرمه على الجميع ، وهم جميعا متساوون أمام القانون فلا فرق بين غنى وفقير ، وأسود وأبيض ، وذى جاه وعديم الجاه .

(٢) حقوق الانتخاب وغيره من الحقوق العامة ، وأساس ذلك أن الأمة يجب أن تُحكَم بنفسها ، وأوضح مظهر لذلك أن يكون لأفراد الأمة الحق فى أن يَنْتَخِبُوا ممثليهم فى الجمعيات النيابية ، يتكلمون بلسانهم ويعبرون عن إرادتهم ، والأمم تختلف فى مدى استعمال هذا الحق ، فبعضهم منع النساء من حقوق الانتخاب ، وبعضهم منع من لا يملك قدرا محدودا من المال وهكذا .

ومن هذا النوع من الحقوق السياسية ما أبيح للأفراد من حق إرسال العرائض بالشكوى من ظلم ناله ، أو اقتراح باصلاح يراه .

الفصل الثالث

معنى الواجب ، ما على الفرد من الواجبات

تستعمل كلمة "الواجب" فيما يقابل "الحق" فما لغيرنا علينا فحق لهم وواجب علينا ، وفى هذا المعنى استعملنا الكلمة فى الفصل السابق ، وكثيرا ما نستعملها ولا نلاحظ فيها مقابلتها للحق فنقول: قد أدى الواجب ، والواجب يقضى بكذا ، ولسنا نلاحظ فيها أنها فى مقابلة حق ، وإن كان التحليل الدقيق قد يؤدى الى ذلك .

وقد عرفه بعض الأخلاقيين بأنه العمل الأخلاقى الذى يبعث على الإتيان به الضمير .

والواجبات على الناس مختلفة متنوعة ، فكل حالة من حالات الحياة تقتضى واجبا معينا ، والناس فى هـذه الحياة كبحارة السـفينة ، وكجنود الجيش ، لكلٍّ عمل وعلى كلٍّ واجب ، على اختلاف بينهم فيما يجب عليهم ، ذلك لأن الناس مختلفون من وجوه عدة :

(١) بحسب الثروة ، فمنهم غنى وفقير ، وبين ذلك .

(٢) وبحسب الرتب ، فخاصة وعامة .

(٣) وبحسب العمل ، فمنهم من عمله عقلى كالقاضى والمدرس ، ومنهم من عمله يدوى كالنجار والحداد ، إلى كثير من أمثال ذلك . وهذا ينتج خلافا فى الواجبات ، فما يجب على حاكم غير ما يجب على أحد الرعية ، وما يجب على غنى غير ما يجب على فقير ، وعلى كل إنسان كائنا ما كان أن يؤدى واجبه ، ولا يستصغرن أحد ما يجب عليه ؛ فكثيرا ما تتوقف كبار الواجبات على صغارها ، فمثلا لا يصح أن نعدّ عمل الكناسين فى الشوارع والأزقة واجبا تافها حقيرا ، فإن عليه تتوقف حياة كثير من الناس وحسن صحتهم ، وليس هذا بالأمر الهين ، وإنّ كسر قطعة صغيرة فى سفينة قد يؤدى إلى غرقها ، كما قد يؤدى فقد سكانها (دفتها) . وضياع مسمار صغير فى ساعة قد يؤدى إلى وقوفها كضياع "الزمبلك" .

أداء الواجب — على كل إنسان أن يؤدى واجبه ، ذلك لأن الإنسان فى هذه الحياة لا يعيش لنفسه فحسب ، بل يعيش له وللناس ، وأداء الواجب يؤدى إلى هذه السعادة ، فالتلميذ

الذى يؤدى واجبه لأسرته ومدرسته يسعد والديه ، والأغنياء بتأديتهم ما عليهم من بناء للمستشفيات وتبرع للجامعات ونحوها يزيدون فى سعادة الأمة ، وعلى العكس من ذلك السارقون والسكيرون، فإنهم بإهمالهم الواجب عليهم وعدم إطاعتهم قوانين بلادهم يزيدون فى شقاء الناس وتعاستهم ، ولا يبقى العالم ويرقى إلا بأداء الواجب ، ولو أن مجتمعا قصر فى أداء كل واجباته أياما لفنى ، فلو أن المدينين لم يؤدوا ديونهم ، ورفض طلبة المدارس أن يتعلموا ، ولم يؤد أفراد الأسرة واجبهم ، وامتنع الزارع عن الزرع ، ورفض كل ذى عمل أن يؤدى عمله لحاق بالمجتمع الفناء العاجل . وبقدر قيام الأفراد بواجبهم يقاس رقى الأمة .

يجب أن نؤدى الواجب لأنه واجب ، نؤديه إطاعة لضميرنا ، لا طمعا فى ربح نناله ، ولا رغبة فى شهرة نحصلها، إن الذين يفعلون لك الخير لما يرجون منك من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضون ثمنه غدا . إنما مثلنا الأعلى أن نصل من الرقى إلى حد أن نتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير إلى الناس كما نتلذذ من وصول الخير إلينا .

وكثيرا ما يكلفنا القيام بالواجب مشقات ينبغى أن نتحملها ، ويتطلب منا تضحية يلزمنا تقديمها ، فالقاضى العادل قد يُضطر إلى الحكم على صديقه أو قريبه فيؤلمه ذلك ، وقد يحمله حب العدل على إغضاب أفراد أو هيئات مختلفة ، فيعرض بذلك نفسه لأنواع شتى من الآلام ، والجندى يقدم حياته عند الخطر فداء لأمته ، ورئيس السفينة إذا عطبت يجب أن يبقى فى السفينة حتى ينتقل جميع من فيها إلى قوارب النجاة ، وإعلان الإنسان رأيه وتمسكه بمبدئه قد يبعده عن منصب ويحرمه من فائدة ، وفى جميع ذلك يجب أن نتحمل التضحية — مهما آلمت — عن رضا وارتياح .

ويجب أن نعد مكافأة الضمير فوق كل مكافأة .

ولنذكر فيما يلى أهم الواجبات :

(١) الواجبات على الإنسان لله

فى العالم قوة خفية تحركه ، وتدبر شؤونه ، وهى علة وجوده وبقائه ، وهى سر ما نشاهد من نظام دقيق وقوانين لا تتخلف ، وظواهر تتتابع بانتظام ، نجوم قد دق سيرها (لا الشمس

يَنْبَغِي لها أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وفصول تتعاقب بدقة تستخرج العجب ، ونباتات وحيوانات جلت حياتها عن الوصف . هذه القوة هى الله رب العالمين .

لهذه القوة نحن مدينون بكل شىء لنا ، بحياتنا وبصحتنا وبحواسنا وبكل ملاذ الحياة وصنوف النعيم ،

فواجب علينا حبه وإجلاله ؛ نحبه لأنه مصدر كل خير لنا ، وهو الذى يمدنا من قدرته بكل ما لنا من وجود وقدرة ، ونحبه لأنه الموجود الكامل الذى لا حدّ لكماله ، ونحبه لأن من طبيعتنا أن نحبه ، فكل إنسان على الفطرة يشعر بحنين إلى إله يفزع إليه عند الشدائد ، ويتضرع إليه فى كشف السوء عنه ، ويجد فى الالتجاء اليه سلوة وأسى عند المصائب ، ومشجعا على العمل وباعثا على التضحية إذا دعا الواجب .

ومن آثار حبه التعبد بأشكال العبادات المختلفة ، فإنها خير ما تكون إذا دعت إليها حرارة الحب وكانت مظهرا من مظاهر الإخلاص لله والطاعة له ، وإلا كانت مجرد حركات وصور وأشكال لا روح لها .

وإن من أحسن أنواع الشكر لله الخضوع لقوانين الأخلاق والعمل بما تقتضيه، ذلك لأن الله خلق هذا العالم وجعل سعادته مرتبطة بأشياء من صدق وعدل وأمانة ونحوها ، وشقاءه وفناءه فى أضدادها ، ثم أمر بما يوصل الى السعادة وسماه خيرا ، ونهى عمـا يجلب الشقاء وسماه شرا ، وتلك الأمور التى توصـل الى السعادة هى بعينهـا قوانين الأخلاق ، فمخالفها عاص لأمر الله جاحد لنعمه ، ومطيعها مطيع لأمره مؤد لواجبه .

إذا امتلأت النفس عقيـدة بما قدمنا — من أن قوانين الأخلاق هى أوامر الله — صدرت الأعمـال عنها ممزوجة بقوة تجعلها أقوى أثرا وأكثر نفعا ، ولذا ترى أن أكثر من اندفعـوا لنصرة الحق وتشـددوا فى التمسك به أو قدموا أنفسهم فداء للفضيلة كانوا ممتلئين عقيدة بالله ووجوب طاعته، ألهبتهم حماسة رغبة فى رضاه، وشوق الى لقائه .

(ب) واجب الانسان نحو نفسه

يجب على الانسان نحو نفسـه أن يكمل ذاته جسميا وعقليا وخلقيا، فهو مكلف أن يرعى هذه الأمور الثلاثة (جسمه وعقله

وخلقه) وأن يبلغ بها ما يستطيع من كمال ، ولنذكر كلمة نوضح بها ما يجب فى كل ناحيَة من هذه النواحى الثلاث :

الناحية الجسمية — كان الإنسان أول أمره يعيش عيشة ساذجة ، يخرج الى الجبال أو يتجول فى الغابات يجمع ما يقتاته فى يومه، ولم يكن إذ ذاك مكلفا بهذه الفروض الكثيرة التى قيدته بها المدنية ، فلا زراعة ولا تجارة ولا تخصص فى عمل ، فلما ارتقى وعاش عيشة المدنية سببت له ضعفا فى صحته ، لأنه حرم الإقامة طويلا فى الهواء الطلق ، وعوّض عنها عيشته فى منازل لا تستوفى شرائطها الصحية، و بالغ فى أسباب الترف والرفاهية، واعتاد كثيرا من العبث كالتدخين ونحوه، وأجهد نفسه فى العمل رغبة فى جمع المال ليسد به المطالب الكثيرة للمدنية. كل هذا ونحوه أثّر فى صحة المتحضر فكان أضعف جسما وأقل احتمالا للجهد . اعتبر ذلك فى الحيوانات ، فإن الطيور وأنواع الحيوان التى تغلب عليها الإنسان فحبسها فى قفص أو فى منزل واستخدمها فى شؤونه أسرع إليها الذبول وكانت عرضة لكثير من الأمراض .

إن جسم الإنسان آلة كسائر الآلات يجب لبقائها وقدرتها على أداء العمل أن تغذّى الغذاء الصالح لها وأن يعنى بها ،

يجب للجسم الهواء النقى والغذاء الصالح والرياضة والاعتدال فى العمل .

وإن سوء الصحة أكبر تلف يصيب الإنسان فهو يضعف قدرته على العمل ، ويختصر حياته ، ويفسد شعوره . وفى كثير من الأحيان يكون ضعف البدن سببا فى سوء الخلق وملل العقل وعدم قدرته على الإنتاج .

إن صحة البدن هى أساس كل ماله قيمة فى الحياة من مال وحياة ومتاع ، ومما يستوجب الأسف أن هذه الصحة لا تقدّر تقديرا صحيحا الا بعد ضياعها أو تعرضها للخطر ، وأن كثيرا من الناس لا يراعون قوانين الصحة إلا اذا ألجئوا إلى ذلك بسبب ضعفهم ،وكان أسهل أن يقوا أنفسهم من الضعف قبل حصوله .

لا يستطيع الإنسان أن يكون إنسانا كاملا ناجحا فى الحياة نجاحا حقا إذا كان مريضا أو ضعيف الجسم ، وأقدر الناس على الإنتاج أطولهم عمرا فى صحة ، نعم إن كثيرا من عظماء الرجال كانوا مرضى ، ولكنهم من غير شك كانوا يكونون أكثر إنتاجا وأصح نظرا ، وأعظم خيرا لأمتهم وللعالم لو كانوا أحسن صحة ، ونجاح هؤلاء مع مرضهم دليل على أن قوتهم العقلية أو الخلقية

غير عادية حتى استطاعوا أن يأتوا بما أتوا به على الرغم من مرضهم .

مرض البدن أو ضعفه ذو أثر كبير فى الخلق ، فمن العسير أن يكون إنسان كامل الخلق وهو ممعود أو مكبود أو ضعيف الأعصاب ، إنك تراه غالبا ضيق الخلق غضوبا يائسا متبرما بالحياة ، وكثيرا ما يسائل نفسه : هل هذه الدنيا تساوى شيئا ؟

نخير إجابة لهذا أن يقال له : أصلح معدتك أو كبدك أو أعصابك تر أن فى الدنيا ما يسر ، وأن فيها ما يحبب الحياة .

إن تضخما قليلا فى بعض غدد المخ يجعل من الصعب على الإنسان أن يعبر عن فكره ، وصدمة لموضع من مواضع المخ تجعل الإنسان معتوها ، واختمارا فى المعدة يحول كل جميل سار فى الحياة إلى قبيح مؤلم ، وأخذ ملعقة من دواء يزيل هذا الاختمار ، يحوّل العالم فى نظره الى ما كان عليه من بهجة وسرور.

كان " كَارْلَيل " ممعودا ، فقال صديق له مساء يوم مشيرا إلى السماء — : ما أجمل هذا المنظر ! إنه يبعث الحكمة الى نفس الإنسان ، فأجابه " كارليل " إنه لا يبعث عندى إلا الأسف والحزن . وقال مرة " إن تسعة أعشار بؤسى وأكثر من

تسعة أعشار أخطائى يرجع إلى اضطراب معـدتى" ومثل ذلك كثير مما يدل على ما لحالة البدن من تأثير كبير فى العقل والخلق .

إزاء هذا كان واجبا على الإنسان السعى فى أن يكون صحيحا وقويا ، وذلك بأن يتخير من العادات فى أكله وشربه وتنفسه واستحامه وعمله ما يؤثر أثرا حسنا فى صحته ، وألا يفرط فى غذاء عقله على حساب جسمه .

يقول بعضهم : "مَنْ مَرِضَ فَقَدْ أَجْرَم" وهـذا صحيح فى كثير من الأحيـان ، لأن كثيرا من الأمراض يمكن اتقاؤه باعتياد النظافة والاعتدال فى المأكل وانتظام المعيشة ونحوها ، كما أن كثيرا من الأمراض يمكن الوقوع فيها باعتياد أضدادها .

الناحية العقلية — يخرج الإنسان الى هـذا العالم جاهلا بكل شيء ثم يتعلم ما استفادته الأجيال قبله بتجاربهم وممارستهم للعالم الذى حولهم ، وأمام كل إنسـان طائفة كبيرة من الحقائق ينبغى أن يتعلمها .

وأول ما ينبغى أن يتعلمه تمرين حواسه حتى يكون ما تدركه صحيحا ، فإن المواد الأولى للعلومات إنما تأتى من طريق الحواس

ــ السمع والبصر والشم والذوق واللمس وغيرها ــ فيجب أن يكون إدراكنا الذى ينشأ عنها صحيحا ، ولا يكون ذلك إلا بتمرينها وتعويدها أن تكسبنا المعلومات الحقة من نفسها لا من طريق التلقين . يجب أن يمرّن الإنسان حواسه حتى يعرف بالتقريب طول الحجرة إذا نظر إليها ، ووزن الشىء اذا وضعه فى يده ، وكم ميلا مشى ، وما منزلة الصوت فى القوة والضعف ، وأن يكون دقيق الملاحظة؛ فيعتاد إذا نظر إلى شىء ثم غاب عنه أن يعرف أوصافه حتى يستطيع أن يحدثك عنه فى جلاء ووضوح . كل هذه الأمور تفيد عقله فائدة كبيرة ، لأن كثيرا من الأخطاء العقلية ناشئ من الخطأ فى المعلومات الحسّية ، وهذه ناشئة من إهمال الحواس وعدم تمرينها فى مبدأ الحياة .

إن كسب الإنسان معلوماته بنفسه من طريق حواسه ــ أولا ــ ثم من طريق عقله ــ ثانيا ــ خير من معلومات يجمعها من الكتب من غير اختبار شخصى .

ولا يمكن النجاح العلمىّ الا بصفات خلقية لابد من توافرها :

(١) تحمل الصعاب والصبر عليها ، فالوصول الى الحق يحتاج إلى عناء ومكابدة فى جمع الحقائق وامتحانها ، واستخراج النتائج

الصحيحة منها فمن لم يتسلح بالصبر لا يمكنه أن يكون عالما ، وكما قيل : " إن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ". ليس مجرد الحفظ والاستظهار بل ولا مجرد الفهم مما يصح أن يسمى علما ، إنما العلم أن تمتحن الحقائق بنفسك وتبحثها لتتبين صحيحها من فاسدها .

(٢) حب الحقيقة، فلا نندفع وراء عواطفنا فى اعتقاد شىء أوعدم اعتقاده مالم يثبت لدينا بالبرهان صحته، ونتوقف فى صدور الحكم اذا كانت البراهين لم تتوافر عليه ، ولانُخدَع بحسن المظهر أو العبارات المنمقة حتى نصل إلى كنه الشىء ونزنه وزنا دقيقا ، ونلتزم الصدق فى العلم فلانصبغ الحقيقة بميلنا الشخصى ولابشهواتنا وأهوائنا، ويدعونا حب الحقيقة إلى أن نوسع صدرنا للنقد يصدر على آرائنا وأفكارنا ، نُشغف بالقراءة فلايكون كل غرضنا من العلم امتحانا ننجح فيه أو شهادة نحصل عليها ، وإنما نقرأ لأن القراءة غذاء عقولنا ، ولكن بجانب هذا يجب أن نتعلم كيف نقرأ ، قال رَسْكِنْ " قد تقرأ كل ما فى دار الكتب الانجليزية ثم تصبح بعد — كما كنت — إنسانا غير متعلم ، ولكن إذا أنت قرأت عشر صفحات بامعان فى كتاب جيد كنت إلى درجة مّا إنسانا متعلما". وقال آخر : " لا تعمل القراءة أكثر من تزويد العقل

بالمعرفة ، أما التفكير فهو الذى يجعل ما نقرأ جزءا من أنفسنا ، يجب أن ننعم النظر ونطيل الفكر فيما نقرأ، وليس يكفى أن نثقل أنفسنا بالمعلومات الكثيرة نكدسها ، فما لم نمضغه ونهضمه لا يغذينا ولا يكسبنا قوة ".

الناحية الخلقية — أهم أسباب الوقوع فى الرذائل شيئان:
(١) الأَثَرة أو التغالى فى حبّ النفس . (٢) الجهل .

فالأثرة نوع من أنواع الضعف متأصل فى الإنسان ، فكل امرئ يتحزب لنفسه ويفكر فيها أكثر مما يفكر فى غيره ، ويدعوه ذلك فى كثير من الأحيان أن يضحى بمصالح غيره وسعادتهم لمنفعته الشخصية ، ذلك هو ما نسميه الأثرة .

حارب المصلحون هذه الأثرة كثيرا ونجحت تعاليمهم ، ففرق كبير بين أثرة المتوحشين وأثرة المتمدينين، ولكنها لاتزال باقية، ولا يزال الطريق طويلا أمام الناس حتى يستطيعوا أن يعاملوا غيرهم كما يعاملون أنفسهم ، ولا تزال هناك عوامل تحيي فى النفوس هذه الأثرة كالحرب وتزاحم الناس على وسائل العيش.

وهذه الأثرة أصل كبير من أصول الشر ، فلو بحثت عن أكثر ما يرتكب من الجرائم لرأيت أن سببها التغالى فى حب

النفس ، وأن المجرم لم يستطع أن يتصوّر أن يضع نفسه موضع من أجرم معه ، ولو وضع نفسه وغيره فى مستو واحد ما استباح لنفسه الإجرام .

والسبب الثانى — الجهل — ونعنى به الجهل بأن الناس مثلنا ، يحسون إحساسنا ، ولهم من الحقوق ما لنا ، وعلينا من الواجبات ما عليهم ، فالإنسان يتخيل أن ليس لغيره مثل إحساسه ، وأنهم لا يتألمون من الشر كما يتألم ، وأن ليس لهم من الحق فى الحياة والسعادة ما له ، ومن أجل ذلك يتخذهم وسائل لمنفعته الشخصية ، وقد حمله على هذا التفكير السيىء السبب الأول ، وهو الأثرة .

إذا زال هذا الجهل واتسع مجال الفكر وعرف الإنسان حقا أن الناس مثله سواء بسواء فى شعورهم وحقوقهم وواجباتهم حقق القواعد الذهبية التى وضعها الأنبياء والمصلحون مثل : " عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به " و " أحب لأخيك ما تحب لنفسك ". وفى ذلك تحقيق المثل الأعلى للأخلاق .

مراعاتك جسمك حتى يكون صحيحا قويا ، وعقلك حتى يكون صحيحا قويا ، وخلقك حتى يكون صحيحا قويا ، هو ما يجب عليك نحو نفسك ، وهـذا وحده السبيل لسعادتك وسعادة أمتك بك .

واجب الانسان نحو أسرته

لكل الحيوانات — تقريبا — مأوى تأوى اليـه ، فللطائر وكره، وللسبع عرينه، وللنحل خلاياه، ويكاد يكون هذا المأوى أعز شيء عندها ، فما أسعد الطائر يرفرف بجناحيه يروح ليلا إلى وكره، وما أخوفه إذا اقترب أحد منه فهدّد بيضه أو فرخه، وما أضرى السبع إذا قصـد أحد عرينه — لا شيء يثير الخوف والغضب عند هذه المخلوقات أكثر من أن يُمَسّ بسوء مأواها .

كذلك الانسـان يجب أن يكون بيته أعز بقعة على الأرض عنده ، إن علاقة الانسان ببيته أقوى من علاقة الحيوان بمأواه، ذلك لأن حاجة الحيوان الصغير إلى أبويه قليلة إذا قيست بحاجة الطفل ، فصغار الطيور مثلا بعـد أسابيع قليلة تقوى وتطير،

وتفارق عشها وتستقل بنفسها ، وتبنى لها عشا خاصا بها ، وتضعف علاقتها بآبائها إن كان ثم علاقة ، أما الطفل فلا بد له من سنين طويلة حتى يستطيع أن يستقل بنفسه ، وإذا استقل فلا تزال العلاقة بينه وبين أسرته قوية متينة ، وسبب ذلك أن بناء الانسان أكثر تركبا ، ومطالب الحياة لديه أكثر تعقدا ، فهو محتاج إلى زمن أطول حتى يتسلح للكفاح فى هذا العالم ويؤدى واجبه .

فى هذا البيت يتعلم الطفل أهم دروس الحياة ولو خرج إلى العالم قبل أن يستكمل تربيته المنزلية لكان متوحشا ، فالبيت فى الحقيقة هو أكبر ممدّن له .

فى هذا البيت يتعلم كثيرا من الدروس ، فمن حبه لاخوته واخواته ووالديه يتعلم درس حب الناس وحب الوطن ، ومن طاعته لوالديه يتعلم طاعة قوانين البلاد وقوانين الأخلاق .

وإذ كان للبيت من المنزلة ما بيّنّا كان علينا نحوه واجبات نجملها فيما يأتى :

يجب على كل فرد فى الأسرة أن يعمل على أن يكون بيته أسعد مكان ، فخشونة المعاملة وخشونة القول والإساءة وإثارة

الشحناء ونحو ذلك كل هذه إذا كانت خارج البيت رذيلة فهى فى البيت أرذل .

ومما يؤسف له أن كثيرا من الناس يتجملون فى أخلاقهم مع أصدقائهم ومن يتعاملون معهم فاذا حلوا فى بيتهم تبدّلت أخلاقهم إلى قسوة وخشونة وفظاظة ، وانقلب ذلك الصوت الهادئ المؤدب إلى هجر فى القول وسوء فى الأدب — والحق أن أدل شيء على الأخلاق الحقيقية هو خلق البيت لا خلق الشارع ، فخلق الشارع خلق التصنع ، والاختلاف فى المعاملة بين أهل بيته ومن فى الخارج يدل على أن الخلق الجميل ليس شيئا فى نفسه وإنما هو كالثوب الجميل يلبسه إذا خرج ويخلعه إذا عاد .

كذلك يجب أن نشعر أن منزل الأسرة للأسرة بجميعها ، فليس من الحق أن يستأثر أحد الأبناء بخير مافيه ، ولا يرعى إلا نفسه ، ولا يهتم إلا بما يعود على شخصه .

أول واجب على الأبناء الطاعة للأبوين إلا فى أحوال نادرة يأمر فيها الأبوان بالخطأ الواضح .

يجب أن يشعر كل فرد بأنه مسئول — بقدر ما يستطيع — عما يحفظ للبيت سعادته ونظامه ونظافته ، وحسن العلاقة بين

أفراده، وأن خطأة يخطئها أحد منهم تهدّد سعادة المنزل وتعرّضه للشقاء .

ليست الأمة إلا عدّة أسر ، وليست المدينة إلاعدة بيوت ، والسلوك الذى يسلكه الناشىء فى بيته ليس إلا صورة مصغرة لسلوكه بعدُ فى أمته ، فصلاح الأمة وصلاح البلاد دائما هو بصلاح الأسرة .

الواجبات المدنية — يقسم بعض الأخلاقيين الواجبات إلى واجبات شخصية، أعنى واجبات على الشخص لنفسه كالنظافة والعفة، وواجبات مدنية أو اجتماعية، وهى مايجب عليه لمجتمعه كالعدل والوطنية ، وفى كثير من الأحيان يكون الواجب نفسه شخصيا ومدنيا تبعا لاختلاف النظر، فإذا نظرنا اليه من ناحية أنه يرقى الشخص فشخصى ، ومن ناحية أنه يرقى المجتمع فاجتماعى ومدنى .

من أهم هذه الواجبات المدنية :

اطاعة القوانين — لأن القوانين انما وضعت لمصلحة الأمة والمحافظة على أرواحها وأموالها ، وكان وضعها نتيجة تجارب قادة الأمة ومفكريها وهى — وان كانت تقيد الحرية —

تكسبنا من السعادة أكثر مما تَسْلُبُ ، فالقانون الذى يحرم القتل قد قيد حريتى ووضع عقوبة على مخالفته ولكنه فى نظير ذلك جعلنى أتمتع بجزئها الباقى بأن أكون آمنا على حياتى ، ثم إن مخالفة القوانين تجر الى الفوضى والاضطراب ، ولإيضاح ذلك يمكن أن نتصوّر مجتمعا قد اتفق أفراده على عصيان قوانين البلاد فلا تحترم ملكية ولا تحترم أرواح . فهذا المجتمع لا يمكن أن يبقى ويسرع إليه الفناء .

وهناك أفراد يطيعون القانون خوفا من العقوبة التى تحل بمخالفه وهؤلاء إذا أمكنتهم فرصة أمنوا فيها من العقوبة جاز أن يرتكبوا الجريمة ويخالفوا القانون ، ولكن خيرا من هؤلاء من يطيع القانون لا خوفا من عقوبته، ولكنه يؤمن بأن القانون انما وضع للمصلحة العامة ففى اطاعته على كل حال تحقيق لتلك المصلحة — لذلك هو يطيعه ولو أمن العقوبة لأنه جعل من ضميره رقيبا على تنفيذه .

أداء الضرائب — كذلك من أهم الواجبات أداء الضرائب التى تفرضها الحكومة ، لأنها إنما تشرع — عادة — للانفاق فى المصلحة العامة ، فالهروب منها هروب من تحقيق تلك المصلحة .

وكثيرا ما يحدّث بعض الناس أنفسهم بالهروب من الضرائب، ويتعللون فى ذلك بعلل ، كالذى يخفى ما معه من السلع فرارا من القانون الذى يلزم كل شخص بدفع ضريبة على ما يأخذه معه فى السكك الحديدية بشروط معينة ، و يبرر عمله بأن القانون قاس ، ومن العدل أن تؤخذ الضريبة من التجار وهو ليس كذلك ، أو يقول إن على عمال السكك الحديدية أن يراقبوا الركاب و يعرفوا ما معهم مما يستوجب الدفع ، وليس على الركاب أنفسهم أن يخبروا العمال ، أو يقول إنه ليس أغنى من الحكومة ، فدفع الضريبة يؤثر فى ماليته أثرا كبيرا ، ولكنه قلما يظهر أثره فى مالية الحكومة .

و بالتأمل نرى أن هذه الأقوال ونحوها واهية ، لأن كل انسان مكلف بحماية القانون ، وأنه اذا رأى القانون غير عادل فليعمل على تغييره بالطرق المشروعة وعليه اطاعته حتى يتغير ، وليس غنى الحكومة بعذر صحيح يسوغ للفرد ألا يدفع ما عليه ، كما أن غنى الدائن لا يسقط حقه فى الدين ، وانما غنى الحكومة من مبالغ صغيرة كهذه تجمعت فكوّنت غنى ، ولو أجزنا هذا العمل لكل فرد لما استطاعت الحكومة أن تؤدى واجبها .

الوطنية

والدفاع عن الوطن

الوطنية حب الانسان لبلاده، أرض آبائه وأجداده، وإنما نحب وطننا لما بيننا وبينه من الصلات المتينة ، فقد تربينا فى جوّه وبين قومه، وصرنا منه بمنزلة الفرع من الشجرة ، كوّن هواؤه وتربته أجسامنا ، وصارت قوانينه وعرفه عاداتنا ، نحنّ اليه إذا نزحنا عنه ، ويهيج أشجاننا إليه ذكرانا له . ونأنس بقربه ، ونعتز بعزته ، ونهون بهوانه .

على أن حب الوطنية يكاد يكون طبيعيا فى كل انسان ، حتى لنرى بعض الحيوانات تحن إلى أوطانها كما تحنّ الطيور الى أوكارها، ولقد ينشأ البدوىّ فى بلد جدب ، ومكان قفر ، وهو مع ذلك يسعد بوطنه ويقنع به ويفضله على كل مصر ، وترى الحضرى يولد بأرض قليلة الخصب أو كثيرة الزلازل والبراكين ثم لا يرحل عنها ، ولا يفضل بلدا آخر عليها ، وإذا رحل عنها حنّ إليها .

هذا هو السر فى أنك ترى البلد تفشو فيه أنواع الحميات أو يكون عرضة لطغيان الماء أو عصف الرياح ، ثم لا يبرحه أهله ولا يعدلون به بلدا سواه .

ويكون حب الوطن عند أكثر الناس فى حالة كُمُون الى أن يَدْهَمَ وطنَهم خطر ، أو توجد دواع تنبههم ، فتتنبه مشاعرهم ، ويظهر حبهم لوطنهم بأجلى مظاهره ، ويدعوهم للعمل على خدمته فيبذلون نفوسهم وأموالهم فى سبيل نصرته ، والذود عن مجده وحريته .

مظاهر الوطنية — يستطيع الإنسان أن يخدم وطنه من طرق عدة :

(١) الدفاع عن البلاد إذا هوجمت أو أريد التعدّى على حريتها ، وهذه هى وطنية الجنود ، وقد ظهر هذا النوع من الوطنية بأجلى مظاهره فى الحرب العظمى ، فقد بذلت فيها الدماء من كل فريق من المتحاربين بسخاء ، حفظا للبلاد من التعدى عليها أو على حريتها .

(٢) وقف الحياة على خدمة الوطن ، وهذه وطنية السياسيين والمصلحين ، فالسياسيون يديرون دفّة البلاد نحو ما يرقيها ويعلى

شأنها ، ويقودون الرأى العام الى ما فيه مصلحة الوطن ، فان رأوا رأيا لم يرضه عامة الناس عملوا ما يرونه حقا ، ولم يثنهم عن عزمهم تهمة يتهمون بها ولا نقد يوجه اليهم ، يفضلون عمل الحق ولو أهينوا على عمل خطأ يرضى الجمهور وإن كُرِّموا ، عمادهم إخلاصهم ، ومرشدهم وجدانهم ، وأما المصلحون فانهم يرون موضع الداء فيعالجونه ، وكثيرا مايحدث أن الداء يتأصل فى الأمة حتى تألفه وتظنه السلامة ، فاذا دعاها المصلح الى العمل على الخلاص منه قامت فى وجهه وعارضته وحسبته خارجا عليها. ولكن المصلح يزيده الاضطهاد تمسكا برأيه ودفاعا عنه ، ولا يزال الناس يلتفون حول رأيه شيئا فشيئا حتى يصبح مذهبه المذهب المقرر والرأى السائد ، ويعجب الناس إذا نظروا إلى ماضيهم كيف كانوا يعتنقون هذا المذهب الفاسد ، وكيف لم يدركوا فساده بمجرد الدعوة اليه .

(٣) أداء الواجب — وهذه وطنية الناس كلهم ، فأداء كلٍّ واجبه اليومىّ فى عمله وفى بيته ومع أولاده وأصحابه ومن يعاملونه وانتخابه خير الناس إذا انْتُخِب ، ومساعدته المشروعات النافعة بماله وعمله وجاهه — كل هذه وطنية صادقة صحيحة ترفع شأن الوطن وتعلى مكانته .

(٤) تشجيع المصنوعات الوطنية والحاصلات البلدية وتفضيلها على غيرها ما أمكن ، كما أن وطنية الصانع والمنتج تقضى عليهما أن يبذلا الجهد لجعل المصنوع والمنتَج فى حالة لا تقل عن أمثالها مما يرد من الخارج ، وعلى الحكومة مساعدة ما تتجه البلاد نفسها بما تضع من نظام الضرائب ونحوها ، وإن الأمة اذا ساعدت المصنوعات والحاصلات البلدية تكون قد ساعدت على حفظ الثروة فى بلادها وجعلها تنتقل من يدها إلى يدها .

وبعد ، فكل انسان يستطيع بعمله ولو حقيرا أن يخدم وطنه ، وليست خدمة الوطن مقصورة على العظماء ، بل إن العظماء لا يكون لهم أثر كبير ما لم تؤيدهم الأمة ، فالقائد الكبير إنما نخره نتيجة عمله وعمل الجنود الصغار ، بل وعمل من صنع للجنود نعالهم وملابسهم ونحو ذلك ، والسياسى العظيم لا يصل إلى غرضه إلا بمعونة كُتّاب يعينونه فى فروع من العمل مختلفة ، وأفراد يبذلون ما يحتاج إليه من المال وهكذا ، الأمة كالساعة ، كل آلة لها عمل ، ولا بد من أداء كل آلة عملها لينتظم سيرها ، وإن كان يختلف عمل الآلات أهمية ، وسير هذه الآلات وانتظامها لا تقع عليه العين عادة ، وإنما مظهر هذا الانتظام

سير العقارب ، فاذا دلت على الأوقات بالضبط دلنا ذلك على أداء كل آلة وظيفتها وإلا لا ، كذلك الحوادث العظيمة فى الأمة والنجاح الكبير لهـا ، مظهره عظماء الرجال المصلحون ، ولكن ما كان يتم ذلك فى الحقيقة لولا أعمال آلاف من الناس لم يعرفهم التاريخ ، فهؤلاء الآلاف منزلتهم منزلة آلات الساعة الخفية ، والعظماء بمنزلة عقربى الساعة هما مظهران لأعمال عدّة دقيقة ، غير أن الشأن فى الساعة أنها إذا تعطلت آلة منها وقفت الساعة جميعا ، أما فى الأمة فإذا تعطل أحد أفرادها عن السـير حملت الأمة عبئه وسارت ، فالجندى فى الجيش إذا خرّ صريعا سار الجيش وتحمل عبء الجندى ، وكان الأولى للجيش ألا يخر أحد منه صريعا ، وأن يحمل كل واحد عبئه فقط .

فالفلاح فى زرعه الأرض وعنايته بالبقـر والغنم ، والنجار فى صناعته ، والتـاجر ببيعه وشرائه ، والجندى بمحاربتـه ، والكناس فى الشوارع يكنس الأقذار ، والأم تربى بنيها وتعنى بالبيت وشئونه ، والخادم بخدمتها ، والأطباء بمحاربتهم الأمراض ومعالجتهم المرضى ، ورجال الحريق بإطفائهم النار ، ورجال العلم الذين ينشرون العلم ويحاربون الجهل ، ورجال السياسة الذين ينصرون الحق ويخذلون الباطل بأقوالهم وأعمالهم ، والشعراء

والموسيقيون وجميع رجال الفن الذين يمـدّون الحياة بالسعادة ، ويشعرون الناس بالجمال ، كل هؤلاء يخدمون وطنهم بعملهم ، وكل هـذه الأعمال لا بد منهـا لسير الأمة الى الأمام ، وكل هؤلاء إذا أدوا أعمالهم باتقان ولم يراعوا فيها مصلحتهم الشخصية فحسب ، بل راعوا فيها خيرهم وخير الناس ، فهم وطنيون صادقون يفخر الوطن بهم ، ويشرف بعملهم .

التربيـــة

ما يتعلق بها من حق وواجب

لكل انسان الحق فى أن يتربى ويتعـلم حسب كفايته واستعداده ، فله الحق أن يتعـــلم القراءة والكتابة وأن يرقى ملكاته فى الفنون والعلوم حسبما يسمح له استعداده ، وأن يتهذب بأنواع التهذيب المختلفة .

وإنمـا كان له هذا الحق لأن التربى وسيلة من وسائل الحرية ، ومن وسائل الحياة الراقية ، فالجهل إذا فشا فى أمة أثر فيها أثرا سيئا فى جميع مرافقها ، سواء فى ذلك الشئون الاقتصادية والصحية والاجتماعية والسياسية ، فالمتعلم يسـتطيع أن يتكسب

ويدبر أمور معيشته وينظم حياته أكثر مما يستطيع الجاهل ، والأسرة المتعلمة أقدر على مراعاة الأمور الصحية من الأسرة الجاهلة ، وإذا كثر الجهل فى أمة كثر فيها الفقر والتشرد والإجرام ، والمتعلمون أصوب حكما إذا انتخبوا من ينوب عنهم ، وأصدق نظرا وأقوم رأيا إذا انتُخبوا ، والمرأة المتعلمة أقدر على تربية أبنائها وتنظيم بيتها وإدارة شئونها وهكذا . والعلم باب للأخلاق القويمة والدين الصحيح ، به يشعر الانسان بنفسه وبه يدرك الحياة العالية ، وبه ترقى شخصيته .

وواجب على الحكومات إزاء هذا إعداد الوسائل لكل فرد من أفراد الأمة لينال درجة من التربية تؤهله لأن يكون عضوا صالحا فى الجمعية يعرف حقوقه وواجباته ، ويجب ألا يحول بينها وبين القيام به فقر الأب أو نحو ذلك . وبعبارة أخرى يجب أن يجد كل طفل فقير مكانا يتعلم فيه ، وأن يكون التعليم يؤهل الناشئين لأن يفتحوا لهم طريقا فى الحياة حسب كفاياتهم وميولهم ، ويبعث فيهم الرغبة فى أن يعيشوا عيشة أخلاقية صالحة ، وعليها إعداد المعلمين الصالحين للقيام بهذه المهمة ، وواجب على الأغنياء والجمعيات مساعدة الحكومات فى نشر التعليم لنيل هذا الغرض .

الفصل الرابع

الفضــيلة

الفضيلة هى الخلق الطيب ، والخلق هو " عادة الارادة " فاذا اعتادت الارادة شيئا طيبا سميت هــذه الصفة فضــيلة ، والإنسان الفاضل هو ذو الخــلق الطيب الذى اعتاد أن يختار العمل الذى تأمر به الأخلاق .

وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب واضحا ، فالفضيلة صفة نفسية ، والواجب عمــل خارجى ، وعلى هــذا يقال : فلان أدّى الواجب ، ولا يقال أدى الفضيلة بل حاز الفضيلة ..

وقد تطلق الفضيلة على العمل نفسه ، فيقال "فضائل الأعمال" وليس يعنى بها كل عمل أخلاقى بل الأعمال العظيمة التى يستحق فاعلها الثناء الجزيل ، فلا نسمى دفع ثمن ما اشترى فضيلة ،

انما نسمى الاتيان بالعمل الكبير مع تحمل المشاق فى سبيله فضيلة ويشهد لهـذا المعنى اشتقاق الكلمة نفسها ، فانها مأخوذة من الفضل ، وهو الزيادة .

ولنذكر لك طائفة من أهم الفضائل .

الصـــدق

هو أن يخبر الانسان بمـا يعتقد أنه الحق ، وليس الاخبار مقصورا على القول ، بل قد يكون بالفعل، كالاشارة باليد وهز الرأس ونحوهما ، وقد يكون بالسكوت من غير قول ولا فعل ، فمن ارتكب جريمة ورأى غيره يؤنَّب على ارتكابهـا ثم سكت فقد كذب ، ومن الكذب المبالغة فى القول مبالغة تجعل السامع يفهم منه أكثر من الحقيقة ، كما اذا بالغ انسان فى وصف شئ بالعظم أو الكبر أو الصغر حتى أفهم السامع أكثر من حقيقته .

ومن الكذب أن يحذف المتكلم بعض الحقيقة ويذكر بعضها اذا كان ذكر ما حذف يجعل لمـا ذكر لونا خاصا .

وهناك طريقة واحدة للصدق وهو "أن يقول الانسان الحق كل الحق ، لا شئ غير الحق" .

وانما كان الصدق فضيلة لأنه أهم الأسس التى تبنى عليها المجتمعات ، ولولاه لما بقى مجتمع ، وذلك لأنه لا بد للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض ، ومن غير التفاهم لا يمكن أن يتعاونوا ، وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذى لا يمكن أن يعيشوا بدونه ، ومعنى الافهام أن يوصل الانسان ما فى نفسه من الحقائق الى الآخرين ، وهذا هو الصدق .

يتجلى لك ذلك فى المجتمعات الصغيرة كالأسرة والمدرسة ، فكلاهما لا يبقى الا بالصدق ، فلو كذب الطلبة فى كل ما يتكلمون ، وكذب عليهم مدرسوهم فى كل ما يعلمونهم ويحدثونهم ما بقيت المدرسة ، وكذلك البيت — واذا كان المجتمع لا يمكن أن يبقى اذا كان كل ما يتكلم فيه كذبا كان من الواضح أن يتضرر بقدر ما فيه من الكذب ، فقد يبقى اذا غلب فيه الصدق على الكذب ولكنه يكون فاسدا منحطا .

ويدلك على ضرورة الصدق ان أغلب المعلومات التى وصلت إلينا بالسماع أو القراءة مبناها الصدق ، وعليها يعتمد الانسان

فى معاملاته وتصرفاته ، فلو كانت كذبا لكانت الأعمال المبنية عليها خطأ وضلالا ، ولما وصل إلينا من العلم الا شئ قليل ، وهو ما يمكننا أن نجربه بأنفسنا ، وهو لا يغنى فى الحياة .

ومن أجل هذا عدّ الصدق أساسا من أسس الفضائل وجعل عنوانا لرقى الأمم وانحطاطها .

ومما يشاهد فى شأن الكذب أن الكذبة الواحدة قد تستوجب عدة كذبات لتغطيها ، وذلك لأن الكاذب يخلق فى الدنيا بكذبه ما لم يكن ، يخلق خيالا لا يتفق والواقع ، وقد يضطره هـذا الخيال الذى خلقه أن يكذب كثيرا ليوفق بين الواقع والخيال ومحال ذلك .

ولا يزال الانسان يكذب حتى يفقد ثقة الناس به وتصديقهم له حتى فيما هو صادق فيه ، كما روى عن (أرسطو) أنه سـئل ما ضرر الكذب فقال : (ألا يثق الناس بقولك حين تصدق) وكل انسان فى هذه الدنيا فى حاجة شديدة إلى ثقة الناس به سواء كان تاجرا أو طبيبا أو مدرسا أو محترفا حرفة،فمن فقد ثقة الناس به فقد حرم خيرا عظيما .

وكما يكذب الانسان على غيره كصاحبه وأخيه يكذب على نفسه وكثيرا ما يكون ذلك ، كمن يحاول أن يقنع نفسه بأنه بذل ما فى وسعه لأداء ما يجب عليه ، وهو فى الحقيقة لم يفعل ذلك ، وكما يحصل كثيرا من محاولة المرء أن يخلق لنفسه الأعذار عن كسله أو بخله أو قسوته أو جبنه غشا لنفسه وخداعا ، وصرفا لها عن الحق ، وقد يغلو المرء فى هذا الأمر حتى يصير عادة له ، وحتى لا يستطيع أن يفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب .

وهناك أنواع من الكذب قد وضعت لها أسماء خاصة : كالنفاق : وهو أن يُظهر الانسان غير ما يبطن ، فهو كذب عملى ، ومن هذا النوع أيضا من يظهر الصداقة ، ويبطن العداء ، وكل من يَظهر بمظهر ينافى حقيقته منافق مذموم ، وكالملق أو التملق : وهو أن تمدح آخر بما لا تعتقده فيه لتدخل على قلبه السرور رجاء أن تنال منه منفعة أو نحو ذلك ، وضد النفاق والملق الصراحة ، وهى أن نفتح قلوبنا لمن نخاطبهم ، وأن نصدق فى التعبير عما تكنه ضمائرنا — والكلمة مأخوذة من قولهم (لبن صريح) إذا ذهبت رغوته وكان خالصا ، فالصريح من الناس من يخلص من الغش ويُظهر لمن يحدثه حقيقة ما فى نفسه .

وقد يخطئ قوم فى فهم الصراحة فيظنون أنها تقتضى أن يقول الانسان كل حق لكل انسان ، وهذا ليس بصحيح ، فهناك مجال للقول ، ومجال للسكوت ، وليس من الصراحة أن تجرح إحساس الناس ، وتؤلم مشاعرهم من غير حاجة تدعو الى ذلك. أو أن يحدث الطبيب الناس بأمراض من يعالجهم من الأُسَر إذا كان ذكر ذلك يسيئهم ، كما أنه ليس من الصراحة أن تفخر بأعمالك ، أو تفشى ما تعرفه من أسرار نفسك أو بيتك أو جيرانك أو أصدقائك، ولو كان كل ما تحدث به حقا، وإنما الصراحة ألّا تقول — إذا قلت — الّا الحق ، ولكن لا تقوله الا لمن له الحق أن يعرفه .

ومن ضروب الكذب الممقوت (خلف الوعد) فمن وعد آخر وعدا وفى نيته عند وعده ألّا يفى فقد كذب ، وكذلك من كان فى نيته الوفاء ثم أخلف لا لعذر أو لعذر يستطيع التغلب عليه ، فى خلف الوعد إضرار بالموعود كاضاعة وقته أو إيجاد أمل كاذب عنده أو نحو ذلك — والوعد دَيْن ، فكما يجب وفاء الديون يجب وفاء الوعود ، ويجب الاقتصاد فيها حتى لا يعد الانسان وعدا إلّا وفى ، ولا يحق لانسان بحال من الأحوال أن يفتح على نفسه باب الكذب بل ينبغى أن يلتزم الصدق فى جميع أقواله وأعماله ،

ولسنا ننكر أن التزام الانسان الصدق فى كل ما يقول و يفعل يستلزم مشقة كبيرة ، و يحتاج الى عناء و رياضة نفس وصبر وشجاعة ، ذلك لأنه قد يعرض للانسان فى حياته اليومية مسائل دقيقة يرى فيها قصار النظر أن الكذب أنفع ، وأنه لا مفر منه ، ونحن نورد لك أمثلة من أقواها ونبين حجتهم فى الكذب ثم نبين وجه الخطأ فيها .

(١) ناشئ ابتدأ يتعلم فن الشعر عرض عليك قصيدة له لم تستحسنها فهل تصدق وتقول : إنها قصيدة سقيمة المعانى ، ظاهر فيها التكلف ، سخيفة النسج ، وحينئذ تكون قد آلمته وجبهته وقد يكون قولك سببا فى تركه الشعر مع أنه لو شجع لصار شاعرا مجيدا ، أو خير أن تكذب وتقول : إنها قصيدة جميلة فتدخل على قلبه السرور ، وتشجعه على السير فى طريقه حتى يبلغ غايته .

والجواب أن هنالك مندوحة عن الكذب ، فان المسئول اذا كان لا يجيد الشعر ولا يستطيع الحكم عليه يمكنه أن يقول بحق : "لستُ من الشعر بالمنزلة التى تخوّل لى الحكم" فان كان يجيده أو يستطيع أن يميز بين جيده ورديئه فليستحسن من الأبيات ما هو حسن فى نظره ، ولينتقد بلطف وأدب مواضع

الضعف ، ويرشده الى طريقة التخلص من عيوبه ، فهـذا صدق لا يؤلم، وفيه من الفائدة ما ليس للمدح الصرف الكاذب، إنما يؤلم النفس احتقار الشيء جملة ، وأن يقال الصدق بخشونة وفظاظة، أما النقد المؤدب فأشهى الى نفس طالب الحقيقة من القول الكاذب المزوق .

(٢) الكذب فى الحروب ، فقد ترى أمة محاربة لأخرى أن تكذب عليها للايقاع بهـا . كأن تقول : إنها ستهاجمها من جهة لا تريدها ، أو تشرع بالفعل فى الهجوم من ناحية وفى عزمها الهجوم من ناحية أخرى ، تريد بذلك التعمية عليها. فهل يصح أن نلزمها الصـدق فنضيع عليها النصر مع أن الحرب خُدَعة ؟

والجواب أن الكذب فى الحروب ليس كذبا فى الحقيقة، لأن الأمة باعلانها الحرب على أمة أخرى قد أعلنتها ألا تفاهم بينهما، وحيث لا تفاهم لا كذب، لأن معنى اعلانها الحرب أنها ستفعل معها ما تستطيع من الايقاع بها ولو بالخديعة ، فمثل ذلك مثل من قال لآخر "سأقص عليك خبرا كاذبا" ثم قصه عليه فليس هـذا بكذب، لأنه لم يخبره بغير ما يعتقد ، فان اعتقد السامع صدق الخبر فاللوم عليه .

(٣) وأدق من هذا وأصعب ما يحدث كثيرا ، يكون لأمٍّ ولد مرض بالسل مثلا، أفليس من الحكمة أن يقول الطبيب إنها "نزلة شعبية" حتى تحتفظ بقوتها وتعنى بالولد، وهو أشد ما يكون حاجة إلى عنايتها أو يقول الحق فتفقد قواها ، وترتبك فى تمريض ابنها ، فيثقل المرض عليه ويسرع ذلك إلى موته ؟

والجواب أن الناظر إذا قصر نظره على هذه الحادثة فى وقتها رأى أن الكذب قد يكون واجبا ، ولكن إذا وسع نظره رأى أن الأم ستعلم أن مرض الولد كان السل لا النزلة الشعبية ، وأن الطبيب قد كذب عليها رحمة بها — وسيعلم الناس ذلك فلا يثقون بقوله مهما أكد لهم عن المرض ، ولو علم الناس أن الأطباء جميعا يتبعون هذه الطريقة لفقدوا الثقة بهم ، فهذا الكذب قد أضاع معانى اللغة ، وأزال الثقة بين الناس ، وينبغى للانسان عند الحكم على شىء أن يوسع نظره ليرى ما يترتب عليه من الأضرار فى المستقبل القريب والبعيد .

ومع هذا فانا نوجب على الطبيب أن يتخير الألفاظ التى يستعملها لأداء الخبر ، وأن يفتح على المريض وأهله باب الأمل بالقدر الذى يعتقد ، ولكن لا يحيد عن الصدق .

على أنه إذا كان الصدق قد يودى بحياة بعض الأفراد ، والكذب ينجيهم ، وإن كنا لم نعثر فى حياتنا اليومية على شىء من هذا — فلم لا نضحى بهذه الأنفس القليلة فى سبيل الحق ، وفى سبيل المحافظة على معانى اللغة ، وثقة الناس بعضهم ببعض ، وهى كلها ركن عظيم من أركان العمران ؟ إذا كان من الصواب أن نضحى بآلاف النفوس للمحافظة على مملكة أفلا يكون من الصواب أن نضحى بنفوس معدودة ، ونحتمل أضرارا محدودة ، للمحافظة على الحق ؟ فلندع هذا النوع من الجدل ، ولنلزم أنفسنا بقول الحق ، كل الحق ، فى كل حال .

الشجاعة

الشجاعة هى مواجهة الآلام أو الخطر عند الحاجة — فى ثبات ، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض النـاس ، فالذى يرى النتـائج ويخاف من وقوعها ثم يواجهها فى ثبـات رجل شجاع ، وما دام الانسـان يعمل فى موقفـه خير ما يعمل فهو شجاع ، فالقائد الذى يقف فى خط النار فيرتعش ، ويخاف أن ينزل به الموت ثم يضبط نفسه ، ويؤدى عمله كما ينبغى ، قائد شجـاع ، بل هو شجاع أيضـا إذا رأى أن خير عمل يعمله أن

يتجنب الخطر ، وأن الواجب يقضى عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر ، فان هو أضاع فى موقفه رشده ، أو ترك موقفا يجب أن يقفه ، أو فر بجنوده من خطر كان عليه أن يواجهه ، فهو جبان .

فليست الشجاعة تعتمد على الاقدام والاحجام ، ولا على الخوف وعدمه ، إنما تعتمد على ضبط النفس وعمل ما ينبغى ، فان ضبط الشخص نفسه ، وعمل ما يجب أن يعمل فى مثل موقفه رغم خطرٍ أمامه و رغم ما يشعر به من خوف ، فهو شجاع ، و إلا فلا .

وليس بالمحمود أن يتجرد الإنسان من كل خوف ، فقد يكون الخوف فضيلة وعدمه رذيلة ، فالخوف عند امضاء عقد سياسى مثلا أو انهاء أمر خطير فضيلة ، إذ هو يحمله على الروية حتى يختمر رأيه ، وفضيلةٌ أن يخاف الانسان من ثلم عرضه وشرفه ، فليس بشجاع من يدخل حانة و يشرب جهارا ، أو يقامر على ملأ من الناس غير هياب ولا وجل ، فذلك ضعف فى الشعور لا شجاعة ، إنما الجبن المذموم والخوف المرذول أن يبالغ الإنسان فى الخوف ، أو يهول فى الشيء المخوف ، فمثلا كل إنسان

عرضة لكلب كَلِب يَعَضه أو سلك ترام يصعقه ، أو سيارة أو قطار يدهمه ، أو نار تشب فى بيته ، أو مكروه ينال منه ، كل هذه الأشياء تخيف ، ولكن الجبان يبالغ فى الخوف منها ، ويخشى جد الخشية من وقوعها ، ثم يحمله خوفه على اجتناب العمل ، فلا يركب مركبا — مثلا — خوف أن يغرق به ، ولا يرحل عن وطنه إذا لم يجد عملا خوف أن يدركه الموت ؛ ولكن الشجاع لا يفكر كثيرا فى احتمال الشر ، ثم إذا وقع لم يطر قلبه شَعَاعا ، بل يصبر له ، ويتحمله فى ثبات ، ان مرض لا يضاعف مرضه بوهمه ، وإذا نزل به مكروه قابله بجأش رابط نخفف من شدته .

وعلى الجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذى يَخاف مما ينبغى أن يُخاف منه ، ولا بالجبان الذى يَخاف مما لا يُخاف منه .

وليست الشجاعة مقصورة على حمل السلاح ومشاهدة الحروب ، بل ان كثيرا من الأعمال اليومية يحتاج إلى شجاعة لا تقل عن شجاعة الجنود ، فرجال المطافئ والأطباء ، وعمال المناجم ، وصيادو الأسماك فى البحار عند اشتداد الرياح وتلاطم الأمواج ،

والممرضات اللائى يتعرضن للأخطار بتمريض المصابين بالأمراض المعدية ، وربانو السفن التجارية ، كل هؤلاء ، وأمثالهم شجعان يتحملون الأخطار كما يتحمل الجنود ، ويقابلون الشدائد فى صبر وثبات .

ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد ، فشجاعٌ من إذا دعاه خطب لم يذهب برشده ، بل يقابله برزانة وثبات ، ويتصرف فيه بذهن حاضر ، وعقل غير مشتت ، قد يرى إنسان نارا تلتهم بيته ، أو لصا يغشى منزله ، أو قطارا يكاد يهشم رجلا ، أو سفينة أشرفت على الغرق ، فان فقد رشده وأضاع صوابه ، وحار طرفه ، ودُلِّه عقله ، ولم يدر ماذا يفعل ، كان جبانا ، وان هو ملك نفسه ، وثبّت قلبه ، وتصرف فى الأمر على أحسن وجه ، كان شجاعا حقا ، كالذى حكى عن عبد الملك ابن مروان أنه أتاه فى يوم واحد خبر مقتل ابن زياد ، وهزيمة جيشه ، ودخول ابن الزبير فلسطين ، وثوران ثورة فى دمشق ، ومسير ملك الروم إلى الشام ، فما تزعزع ولا طاش ، وقد رؤى فى هذا اليوم ثابت الجنان ، غير مقطب الوجه ، ثم شغل ملك الروم بمال يؤديه اليه ، ووجه جيشا إلى فلسطين فاستردها ، وسار إلى دمشق فأسكن فتنتها .

الشجاعة الأدبية — لما تقدّم الناس فى المدنية لم يكونوا فى حاجة كبرى إلى الشجاعة البدنية ، كما كانوا يحتاجون اليها أيام بداوتهم ، فظهر للشجاعة معنى جديد يسمونه الشجاعة الأدبية ، يعنون بها أن يبدى الانسان رأيه وما يعتقد أنه الحق مهما ظن الناس به ، او تقوّلوا عليه ، ومهما جرّ ذلك عليه من غضب عظيم ، لا يخاف من تحمل ألم يصيبه فى سبيل قول حق يقوله ، أو مبدأ هام ينشره ، فلو رأى فى مسألة غير ما يراه علماء وقته أو من حوله من الناس ، أو خالف حاكما أو عظيما ، جاهر برأيه غاضا عما يناله من الأذى ، يقول الحق بأدب و إن تألم منه الناس ، و يعترف بالخطأ و إن نالته عقوبة ، و يرفض العمل بما لا يراه صوابا ، ولو لم يقع رفضه موقعا حسنا . والتاريخ مملوء بكثير من الناس ضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل قول الحق ونصرته ، وصبروا على الآلام عشقا للحق وهياما به ، واستعذبوا طعم الرزايا تنزل بهم لأنهم يحبون الحق أكثر مما يحبون أنفسهم ، ومنهم الأنبياء والمرسلون والشهداء ونوابغ العلماء ، فقد أوذوا فى الحق فتحملوا الأذى ، و باعوا أنفسهم وأموالهم مرضاة له ، كالذى حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء اليه عمه أبو طالب ينصحه بالعدول عن دعوة الناس فقال له "ياعم ! والله لو وضعوا

الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته " .

ومن هؤلاء " سقراط " الفيلسوف اليونانى ، فقد علّم شبان أثينا ما وصل اليه علمه ، وبذل جهده فى تثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم ، فلما بلغ سن السبعين اتهم بأنه يجحد آلهة اليونان ويضلل الشبان ، فحكم عليه بالإعدام ، وكان فى استطاعته أن ينجو بنفسه إذا هو تعهد أن ينقطع عن التعليم ، ولكنه أصر على قول الحق وأضاع حياته .

وفى تاريخ العرب كثير من أمثال ذلك "فابن رشد" الفيلسوف المتوفى سنة ٥٩٥ هـ اضطهد من أجل اشتغاله بالفلسفة وسجن ونفى فلم يعبأ بذلك كله .

" وابن تَيْمِيَة " أحد الفقهاء المشهورين المتوفى سنة ٧٢٨ هـ أداه اجتهاده إلى مخالفة الفقهاء فى عصره فى بعض المسائل فوشوا به إلى السلطان فسجنه ، فظل يكتب الرسائل فى سجنه يؤيد بها مذهبه ويدحض بها حجج معارضيه .

وفى العصور الحديثة لولا أن قوما من العلماء ضحوا كثيرا فى قول الحق ما تقدم العلم والمدنية إلى الحد الذى نراه "فجاليليو"

الفلكى الايطالى (١٥٦٤ — ١٦٤٣ م) اخترع التلسكوب فرأى به أن المَجَرّة ليست إلا نجوما كثيرة، وأن فى القمر جبالا وأودية كالتى فى الأرض ، ورأى به كلف الشمس ، وكان يعلم أن الأرض تدور حول الشمس مخالفا تعاليم (بَطْلَيْمُوس) القائلة بأن الأرض هى مركز الكون ، فاضطهده من أجل ذلك بعض القسيسين ، وأمروه بالكف عن تعاليمه ، فلم يستطع الصبر عن الحق ، فأخذ وسجن وعذب كثيرا من أجل تعاليم يعرفها كل تلاميذ المدارس اليوم ، (وداروين) الفيلسوف الانجليزى (١٨٠٩ — ١٨٨٢ م) لم يعذَّب كما عذب من قبله بسجن أو نفى أو قتل ، ولكنه عذب بالانتقاد المر من رجال عصره فتحمله ، وأبان الطريقة التى اتبعها النبات والحيوان فى نشوئه وارتقائه ، ولم يقعد به ضعف صحته عن البحث وراء الحقيقة ، فكان على الرغم من مرضه وألمه يجرى التجارب ويجتهد أن يتعلم دائما أشياء جديدة عن الدنيا التى يعيش فيها .

فواجب أن نقف بإزاء الحق نصرح به ، وندافع عنه ونعشقه ، ونتحمل الآلام فى سبيله ، ونتخذ من ذكرنا مثلا صالحا فى حياتنا .

ومن هذا النوع من الشجعان من يهجر لذته وراحته ، ويتحمل الآلام لخير الناس واسعادهم ، كمن يرى مرضا اجتماعيا فى قومه فيخصص حياته ، لدراسته ومعرفة أسبابه ، ثم يتحمل المتاعب فى سبيل اصلاحه ، وكأن يرى الأطفال الذين لم يتجاوزوا العاشرة يعملون فى المعامل ساعات طويلة فى أماكن غير صحية بأجر قليل ، لا يرحمهم ولا يشفق عليهم أصحاب المعامل ورؤوس الأموال ، فيشبون ضعفاء جهلاء يقسون على من دونهم كما قُسِىَ عليهم ، أو يرى أولاد الشوارع ينشأون ولا علم ولا عمل فيكونون بعدُ مجرمين يعبثون بالأمن ويعيثون فى الأرض فسادا ، أو يرى فقراء يألمون فى الحياة آلاما جسيمة ، يقضون أطول زمن فى العمل وينالون أقل أجر ، تشتد مزاحمتهم على العمل ، ويخضعون لنظم شاقة ، يسكنون مساكن غير صحية وهم مع ذلك يستأجرونها بأجرة باهظة إذا قيست بمساكن الأوساط والأغنياء ، أثمان طعامهم ووقودهم وحاجاتهم أغلى مما يدفعه الأغنياء لأنهم مضطرون إلى شراء كميات قليلة فى أوقات يقل فيها الصنف ، تكثر بينهم الأمراض والوَفَيات ، ويشتد بهم الضيق بمجرد قعودهم عن العمل لأنهم لم يستطيعوا أن يوفروا شيئا من أجورهم وقت عملهم ، بيوتهم وحاراتهم تشمئز منها النفس قذارة ، اضطرهم

الفقــر الى الازدحام فى الحجرة الواحدة مع ما يفشو فيهم من الأمراض، تنشأ بينهم أبناؤهم وبناتهم فيجدون حولهم جوّا خانقا، سكر وعربدة وتسوّل ومسكنة وكذب جرّ إليها الفقر وسوء الحال، فيخضعون لذلك مضطرين ، ويسيرون سير آبائهم وهم فى ذلك مجبرون لا مخيرون ، فمن رأى شيئا من ذلك أو نحوه من الأمراض فخصص حياته لمعالجته، وضحى بكثير من مصلحته لمصلحة أمته، وصبر على ما يناله من الشــدائد ، وتغلب على ما يصادفه من العقبات ، كان أشجع من جندى فى خط النار .

علاج الجبن — الشجاعة والجبن ونحوهما من الفضائل والرذائل تعتمد على الوراثة والتربية معا ، فنحن نرث من آبائنا بذور شجاعتهم أو جبنهم ، ولكن يجب ألا ننسى أن للتربية أثرا كبيرا ، فهى اذا كانت صالحة زادت الشجاع شجاعة ، وقللت من جبن الجبان ، واذا عولج الجبان علاجا ناجعا فقــد يبرأ من مرضه ، وليس للجبن علاج واحد ، بل ينبغى أن ينظر الى سببه ، ثم يتخذ له العلاج اللائق به ، شأن جميع الأدواء ، فقــد يكون سـببه الجهل بالشىء فالعلاج إذا العـلم به ، كالذى يرى شبحا فى الظلام فينزعج منه وترتعد فرائصه ، فاذا علم أنه حجر أو متاع

انِسَ به وزال خوفه ، ومن هذا النوع أكثر ما يخيف فى الظلام من عفاريت ونحوها .

ويتصل بهذا عدم الأُلْف ، فكثيرا ما يكون سبَب الجبن ، فالانسان إذا لم يأنس بالشيء ويألفه يجبن أمامه ، كالطالب الذى لم يتعود الخطابة فاذا هو حاولها تهدَّج صوته ، وجف ريقه ، وارتعشت أطرافه ، ومن لم يتعود غشيان المجالس ومخالطة الناس يخاف منهم . ويلجئه الجبن الى حب العزلة ، فان هو اضطر يوما الى الاجتماع بهم علاه الخجل ، واضطربت حركاته ، وزاد ارتباكه ، وثقل على الناس وثقلوا عليه ، وعلاج هذا الأُلْف والتعود ، فلا يزال الرجل يتكلف الخطابة حتى يصير خطيبا ، والجرأة حتى يصير جريئا ، ومما يفيد فى هذا الباب أن يفرض وقوع النتائج التى تكون إن وقع المكروه ثم يهوّنها على نفسه ، فلو تصور أنه خطب فلم يُجِدْ وانتقده السامعون ، ثم صغر هذه النتيجة وهونها تشجع ولم يجبن ، ولو قرر الأطباء أن تعمل له عملية جراحية فقدر الموت واستصغره قابل العملية بثبات وهكذا .

ومن العلاج أن ينظر الى نتائج كل من الجبن والشجاعة فاذا ظهر له أن ما يصل اليه من الخير اذا هو تشجع أكبر مما يصل

اليه من الجبن استحثه ذلك على الشجاعة ، فمن جبن عن أن يرحل عن بلده لطلب رزق أو علم فلينظر يرأن من المحتمل أن يصيبه مرض فى رحلتــه ، أو يموت فى غربتــه ، ولكن من المؤكد أنه ان لم يرحل ضاق رزقه ، أو قل علمه وكان جبانا حتما ، فان ذلك النظر قد يحمــله على أن يكون شجاعا ، لا سيما ان علم أن ليست الحياة أن ينبض قلبه ، ويأكل فى اليوم ثلاثا ، انمــا الحياة أن يعمل وينفع ، ويستفيد ويفيد .

. . . . . .

تذكر وقت جبنك سِــيَرَ الأبطال ، وأكثر من مطالعة تاريخ حياتهم تستشعر الشجاعة ، وتمتلىء حماسة ، وتحس بقوة تدفعك الى العمل على مثالهم ، والسير فى طريقهم .

التعاون

التعاون نوعان :

تعاون بين أفراد الأمة الواحدة ، وتعاون بين الأمم .

التعاون بين أفراد الأمة الواحدة

الانسان مدين بحياته ووجوده للمجتمع ، فلولا اجتماع أبويه وتعاونهما ما وجد ولا تربى .

ولا يستطيع بعدُ أن ينقطع عن العالم ويتجرد من كل ما كسبه منه ، فهو حتى لو عاش فى جزيرة وحده انما يستعمل — فى تحصيل رزقه وصيد الحيوانات التى حوله — الآلات التى علمه إياها المجتمع ، بل هو لو لم يتخذ معه آلات ولا كساء ، فانما يجمع ما يقتاته وينسج ما يلبسه بمعلومات هو مدين بها لمجتمعه ،

فالتعاون بين الأفراد لابد منه للحياة ، وكلما تقدم الناس في الحضارة كانت حاجتهم الى التعاون أشد ، ويظهر ذلك جليا اذا قارنت بين سكان القرى وسكان المدن ، فالفلاح يزرع ، وهو يطحن ويخبز . ولا يستعين على ذلك الا بأهل بيته . وقد ينسج ملابسه بنفسه من صوف غنمه، ويربى أولاده فى حقله ، وعلى الجملة فمطالب الحياة لديه بسيطة قليلة . يقوم فى أكثرها بنفسه وأهله .

أما ساكن المدن فمحتاج الى مخبز يعد له الخبز، ولبّان يحضر له اللبن، وفى ملابسه يحتاج الى مراكب تستورد له ملابسه من الخارج وخياط يخيطها له ، ومدارس تربى له أولاده ، وترام أو سيارات ينتقل عليها، وجرائد يقرؤها ونحو ذلك من المطالب التى يستغنى القروى عن كثير منها .

وكثرة الحاجات والمطالب، وشدة الحاجة الى التعاون ألجأت الناس إلى توزيع الأعمال ، وتخصيص كل طائفة لعمل ، وتعاون كل طائفة من العمال مع الأخرى .

أنظر — مثلا — إلى الكتاب الذى تقرؤه ، فقد اشترك فيه ألوف من العمال قبل أن يصل إلى يدك ، وتعاون عليه طوائف

من الصناع كل طائفة تخصصت لعمل، فطوائف لصنع الورق قد تخصصت كل جماعة لنوع من صناعته ، هؤلاء لعجينته ، وهؤلاء لصقله وهكذا ، والمؤلف الذى ألف الكتاب قد اشترك فى إعداده للتأليف جماعة كثيرون ، ربوه وأعانوه وعلموه حتى استطاع أن يؤلف، واذا نظرت الى المطابع التى طبعت الكتاب اتسع مجال النظر ، فكم من الصناع اشتركوا فى صنع آلات الطباعة ! وصنع الحبر ، وصنع الحروف ! وكم من العمال صفوا الحروف ثم طبعوها ! وهكذا ، ولولا هذا التعاون بين طوائف العمال ما وصل الكتاب الى يدك . وتوزيع العمل على الناس ، وتخصيص كل طائفة بعمل ساعد على الاتقان ، كالذى ترى فى لاعبى الكرة فلو أنك رتبت اللاعبين، وكلفت كل لاعب عملا خاصا ، انتظم اللعب ، وكان أوفى بالغرض ، وعلى العكس من ذلك اذا أنت سمحت لكل لاعب أن يأتى بكل أعمال اللعب من غير تحديد .

كذلك كان هذا التوزيع من وسائل توفير الزمن وتوفير المال فالقمح لو اشتغل أفراد فى حصاده ، وآخرون فى طحنه ، وطائفة ثالثة فى خبزه ، أخذ زمنا أقل فى إعداده ،

وكان أرخص مما اذا اشتغلت فيه طائفة واحدة بالحصاد والطحن والخبز معا .

لعلك نظرت إلى آلة من الآلات الكبيرة كآلة الطباعة ، أو آلة رفع المياه أو توليد الكهرباء ، وكيف رأيت أن كل آلة مركبة من أجزاء مختلفة ، كل جزء له عمل خاص ، فعجلات ومكابس ونحوها تتحرك حركات مختلفة ، وكل جزء يتحرك حركة مناسبة للآخر ومؤدية لتحصيل الغرض من الآلة ، كذلك الناس والحياة، هم آلة كبيرة، كل يؤدى عملا جزئيا وكل يتعاون مع الجزء الآخر فى عمله ، ولو قعد جزء هام من العمال عن العمل لوقف سير العمل بجميعه ، كما اذا وقف جزء هام من آلة الطباعة ، وكل جماعة من الناس صالحون لنوع من العمل قد لا يصلحون لغيره ، فالواجب أن يعملوا ما صلحوا له ، وأن يؤدوا عملهم على أحسن وجه ، علما بأن بقية أجزاء الأمة يتوقف عملها على عملهم ، وإن لم تر ذلك عيونهم .

كثيرا ما تقرأ أو تسمع أن بعض المؤلفين وعظماء الرجال ماتوا غرقا من إهمال ربان سفينة ، أو سقط عليهم بيت من إهمال مهندس أو نحو ذلك . كل هذا يدلنا على أن كل انسان فى أمة يتعدّى

عمله غيره من الناس وقد يصل أثرذلك الى حياتهم ، وهـذا يجعلنا نشعر بالمسئولية الملقاة على عاتقنا ، و يوجب علينا ألا نحتقر من يعمل غير عملنا ، كلٌّ يؤدى واجبا ، وكل لا بد من عمله لسير الأمة ، فالمؤلف إنما يستطيع أن يتفرغ للتأليف لأن غيره من الناس يشتغل فى إعداد مأكله ومشربه وملبسه . وأنت إنمـا تتعلم وتتفرغ لتحصيل علمك لأن غيرك قد كفاك مؤونة السعى لتحصيل العيش ، وهكذا الناس ، كلٌّ خادم ، وكل مخدوم ، وخير الناس أنفعهم للناس .

ولا يصح أن يسمح بالتعاون بين الأفراد أو الشركات إذا كان فى ذلك ضرر بالأمة ، كما يحدث فى الاحتكار ، فلو اتحـدت شركات الميـاه والنور على رفع السعر حتى أرهقوا الشعب كان هذا ضربا من التعاون بين هذه الشركات ، ولكنه تعاون ضار لا ترضى عنـه الأخلاق ، انمـا ترضى الأخلاق عن أنواع من التعاون تزيد فى رقى الأمة ، كجمعيات التأليف ، ونوادى الفنون والألعاب الرياضية ، وجمعيات البر والإحسان ، فان التعاون بين هـذه الجمعيات والنقابات يزيد فى سعادة الأمـة و يعين على نهوضها .

التعاون المـالى والزراعى والصناعى والتجارى

هناك ضرب من ضروب التعاون هو التعاون الاقتصادى ، وهو اشتراك جماعة فى عمل بحيث يعمل الفرد فيه لمصلحة الجماعة ، كما تعمل الجماعة لمصلحة الفرد .

وقد كان من خير الوسائل لاصلاح حال الفقراء هذا الضرب من التعاون ، دعا اليه انتشار البؤس بين العمال فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بسبب المخترعات الحديثة التى استُغنِىَ بها عن كثير من العمال ، فكثر العـاطلون وقلّ أجر العاملين .

فرأى المصلحون أن يستعينوا على مغالبة الفقر والذل باتحادهم وتضامنهم ، وانشاء جمعيات التعاون على اختلاف أنواعه ، من تعاون مالى وزراعى وصناعى وتجارى ، وكان من أثر هذه الجمعيات تقليل الفقر وما يتبعــه من اجرام ، وتحرير العمال من تحكم أصحـاب رءوس الأموال ، كما كان من أثرها تنمية ثروة الأمم بالبحث عن موارد للثروة جديدة ، وترقية الموارد القديمة .

التعاون المالى :

هو اشتراك جماعة فى تدبير المال اللازم الذى يحتاج اليه الفقراء منهم سواء أكانوا من الزراع أم الصناع أم التجار لحماية الأعضاء من المرابين — فيتعاون جماعة فى انشاء صناديق قروية — مثلا — لأقراض الفلاحين فى القرى ما يسد حاجتهم بفائدة قليلة ، ولردها فى مواعيد مناسبة — أو أن يشترك جماعة فى مدينة كبيرة على إنشاء مصرف لاعانة العمال والتجار من أعضاء هذه الجماعة بالاقراض أو شراء ما يلزمهم جملة ثم بيعه عليهم بربح قليل ، وهذه الصناديق أو المصارف يديرها بعض أعضاء هذه الجماعة بالانتخاب .

وقد وجدت فى أوروبا كثير من هذه الجمعيات مختلفة الأنواع ، مختلفة النظم ، وهى على اختلاف أنواعها ونُظُمها قد خدمت أعضاءها وأعانتهم فى تسيير شؤونهم وتنظيم حالتهم المالية .

التعاون الزراعى :

التعاون الزراعى هو اشتراك جماعة من المتصلين بالزراعة سواء كانوا ملاكا أو مستأجرين أو نحو ذلك تكون غايتها إصلاح حال أعضائها اقتصاديا واجتماعيا . وهذه الجمعيات تقوم بأقراض

الفلاحين ما يحتاجون اليه من المال بشروط مناسبة ، وبوضع نظم تقى الفلاحين تلاعب التجار بأثمان حاصلاتهم ، وتدرأ عنهم الخطر من مزاحمة الحاصلات الأجنبية ، وبتحسين طرق الزراعة ووسائل النقل ، وبالعمل على ترقية الحاصلات وزيادتها ، وبشراء حاجات الزراع جملة وبيعها لهم من غير ربح ، وببناء المساكن للفلاحين ، وهكذا .

وقد وجد نظام التعاون الزراعى فى جميع البلاد المدنة ، وأنشئت النقابات المتعددة فى جميع أنحائها ، فمنها ما تقتصر أعمالها على دائرة ضيقة كقرية أو بعض قرى متجاورة ، ومنها ما تتسع أعمالها حتى تشمل مديرية أو نحوها ، وتستعين على تحقيق أغراضها بالمال الذى تجمعه من اشتراكات أعضائها ، ومن الهبات والتبرعات ، ومن الربح القليل الذى تحجزه لنفسها من عمليات البيع والشراء ، ومن القروض التى تساعدها بها الحكومة .

وقد نجحت هذه النقابات فى ترقية الفلاح ماليا ، فحسنت محصولاته ، وزادت فى انتاجه ، وحمته من تلاعب التجار والمرابين ، كما رقته اجتماعيا فأصلحت مساكنه ، وبثت فيه روح الجد والعمل وسهلت له ولأولاده وسائل التعلم وخصوصا التعلم الزراعى وهكذا .

التعاون الصناعى :

تتألف عادة جمعيات التعاون الصناعى من عمـال من مهنة واحدة يكون غرضها حمايتهم من تحكم أصحاب رءوس الأموال .

وقد تألفت كذلك جمعيات من هـذا القبيل تختلف نظمها وتتحد غايتها، وهى مساعدة العمال بالمطالبة برفع الأجور ، وحل مشكلة البطالة ، والعناية بهم من الناحية الاجتماعية باصلاح مساكنهم وتعليم أولادهم، وقد شجعت الحكومات هذه النقابات باقراضها المـال لترقيـة الصناعة ، وبهبتها المـال للشركات التى لا تجد ما يكفيها لانشاء مصنع ، أو التى تصيبها أزمة مالية أثناء عملها .

التعاون التجارى :

كذلك من أنواع التعاون إنشـاء النقابات للتعاون بين التجار لتنظيم أعمالهم والمطالبة بالتشريع الذى يحمى تجـارتهم ، كدفع الضرائب على المنتجات الخارجية ، وكتعاونهم فى إقراض ذوى الحاجة منهم، وكانشاء الغرف التجارية تعبر عن حال من أنشئت

من أجلهم ، وتطالب بما ترى من إصلاح وتسعى في العمل لحماية مصالح من ينتسب اليها وهكذا .

*
* *

ولم يكن بمصر حركة للتعاون منظمة حتى قام المرحوم عمر بك لطفى سنة ١٩٠٨ فدرس نظم النقابات فى أوروبا ، ونادى بضرورة إنشائها بمصر ووضع النظم التى رآها صالحة ، وألقى فى ذلك المحاضرات ، وكتب فى الصحف والمجلات ، وعضده فى ذلك المغفور له السلطان حسين وكان إذ ذاك أميرا ورئيسا للجمعية الزراعية ، فأسست أول شركة للتعاون المالى سنة ١٩١٠ ، وسعى فى تأسيس نقابات زراعية بالقرى ، كما سعى فى تأسيس شركات للتعاون المنزلى وفى سنة ١٩٢٧ وضع قانون جديد للتعاون أقره البرلمان ، وقد أنشئ بوزارة الزراعة قسم للتعاون يسجل الجمعيات التعاونية ويشرف عليها كما أنشىء مجلس التعاون الأعلى يبحث الخطط العامة للحركة التعاونية .

وتألفت فى مصر نقابات للعمال لتوطيد العلاقات بينهم والعمل على تحسين حالتهم . . .

ولكل هـذه الجمعيات والنقابات أثر كبير من الناحية الأخلاقية ، لأن كثيرا من الجرائم والشرور سببه الفقر والفوضى الاقتصادية ، فاذا قلت البطالة ونظم العمل وضمن للعامل والزارع والتاجر رزقه ، ووضع من النظم ما يحمى من اعتداء طائفة منهم على أخرى واستغلالها قلت الجرائم والشرور فى الأمة ، واتجه أفرادها الى التفكير الصالح والعمل الصالح .

التعاون بين الأمم

هنـاك نوع آخر من التعاون هو التعاون بين الأمم ، وذلك على ضروب شتى .

من ذلك التعاون التجارى ، فخيرات هذه الأرض قد وزعت على العالم ، فالبن والقطن والأرز والفاكهة والفضـة والذهب والحديد ونحوها ، ليست مجموعة فى بقعة واحدة ، وإنمـا يكثر فى أمة بعض الأشياء ، ويقل البعض الآخر ، وهكذا فتحتاج الأمم إلى التعاون وتبـادل ما بينهم من الخيرات ، ولو أن كل أمة قصرت حياتها على ما عندها من خيرات ، لاتخمت فى بعض

الأنواع، وأحست بالجدب والفقر فى البعض الآخر ولم تستطيع على العموم — أن تعيش عيشة سعيدة . فبهذا التبادل تتعاون الأمم على السعادة ، ولذلك كان من السخافة أن تعمد أمة الى إفناء أمة أخرى ، اذ يكون مثلها مثل تاجر يعمد الى إحراق منزل عميله .

كذلك تتعاون الأمم فى نشر الحضارة ، ولعل أوضح مثل لذلك اليابان ، فقد رأت حاجتها الى اقتباس المدنية الغربية فأرسلت البعثات الى الممالك المختلفة لتدرس نظمها ، وكانت النتيجة أن نظمت بحريتها على نمط البحرية الانجليزية ، وجيشها على النمط الألمانى أحيانا ، واقتبست آلاتها على النمط الأمريكى أحيانا والانجليزى أحيانا ، وهكذا .

وكذلك تتعاون الأمم فى الاختراع والاستكشاف ، فالانجليز أمدوا العالم بالآلات البخارية ، وأمريكا وصلت الى درجة عظيمة فى استعمال الكهرباء وعنها أخذ العالم ، والكيمائيون الألمان اخترعوا كثيرا من عجائب الكيمياء ، والفرنسيون

استكشفوا كثيرا من ميكروبات الأمراض ، ونجحوا فى وصف علاجها ، ولما اتجهت الأذهان لترقية الطيران تسابقت الأمم المختلفة ، كل يدخل عليه نوعا من التحسين ، وكل يريد الفوز والغلبة ، وكل يستفيد مما يدخله الآخر من الاصلاح .

كذلك الشأن فى العلوم والآداب والفنون ، يظهر فيلسوف كبير فى أمة فتنتفع الأمم الأخرى بعلمه ، وتظهر رواية جميلة أو قطعة موسيقية ممتعة فتمثل أو توقع فى الممالك الأخرى ، حتى يكاد يكون العالم أو الأديب أو الفنان عالميا ، نتاجه للأمم كلها لا لأمته .

وتبادل الآراء نوع من التعاون ، فالأمة ترسل بعثاتها إلى الأمة الأخرى تدرس آراءها وتستفيد منها ، وكالذى ترى فى المؤتمرات ، تعقد لمختلف الموضوعات ، كمؤتمر التربية ، ومؤتمر التاريخ ، ومؤتمر الجغرافيا ، ونحو ذلك ، يجتمعون من عدة أمم فيتبادلون الأفكار ، ويستفيد كلٌّ مما وصل اليه بحث الآخرين .

وتتعاون الأمم على ما يصيب إحداها من الكوارث فزلزال مسينا، وثوران البراكين، ونحو ذلك يحل بالأمم أعظم المصائب، فتتعاون الأمم على درء الشر، وإغاثة المنكوبين، بما يتبرعون به من مال ورجال، ومن مظاهر هذا التعاون ما كان بين الحكومات، فالمعاهدات بين الأمم فى تبادل البريد، والتلغرافات ونحو ذلك أثر من آثاره، وكذلك تعاقد حكومات الأمم على منع تجارة الرقيق، ومحاولتهم الآن التعاون على نقص التسليح. والعمل على منع الحروب، واحلال عصبة الأمم محل تحكيم السلاح، وان كان ذلك مما لا يزال أملا يُرْتَجَى.

الخلاصــة

وبعد ، فهذه الفضائل وأمثالها لا يرقى الانسان فى اكتسابها الا بأمرين :

الأول — محاســبة النفس وسؤالها من حين الى حين فى أية فضيلة ارتقيت وفى أيتها ضعفت ؟ هل أنا اليوم أصدق منى أمس ؟ والى أية درجة نجحت فى التزامى الصدق ؟

بهذا الامتحان ونحوه يستطيع الانسان أن يتتبع نفسه ويراقبها فى سيرها .

اذا رأيت نفسك تغضب كل يوم فاجتهد أن يمر يوم لاتغضب فيه ، ثم اجتهد أن يمر يومان فثلاثة ، فاذا نجحت فى مرور أيام لم تغضب فيها فتصدق بصدقة شكرا لله على تقدمك فى النجاح فى كسب هذه الفضيلة ، وانتقل الى غيرها ، وهكذا .

الثانى — الارادة القوية المسيطرة على النفس ، فالإرادة قابلة للتمرن ، ومثلها مثل من يبتدئ فى ركوب دراجة (بسكلت) فهو فى أول أمره يختل توازنه ، ولا يستطيع أن يسيطر عليها ،

يعلم ما يريد ولكن لا يستطيع أن يصرفها كما يريد ، وبالتدريج والمران تطيعه الدراجة ، وتنتظم حركته ، وتصبح تحت سلطته ، ويسير فى سهولته سيرا آليا .

وهذا هو ما ينبغى فى سيطرة الانسان على نفسه ، يكون لارادته من القوة ما تستطيع به أن توجه النفس الى ما تعتقد من خير وصواب .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ٢٥ من ربيع الثانى سنة ١٣٥٣
(٦ من أغسطس سنة ١٩٣٤) م

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الأميرية ١٩٣٢-١٠٥٠٦-١٦٠٠٠



